مكتبتنا العربية

السنة

عيد الدستور

لفضيلة الشيخ طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر ، فقال يا أمير المؤمنين آيةٌ فى كتابكم تقرءونها ، لو علينا نزلت ـ معشر اليهود ـ لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : وأى آية ؟ قال : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا» فقال عمر : إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه ، والمكان الذى نزلت فيه ؛ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات فى يوم جمعة . رواه الشيخان .

* * *

تحتفل الأمم والحكومات الدستورية باليوم الذى ظفرت فيه بدُستورها الوضعى ، ويفخرون بأن لهم عيداً دستورياً مقدسا هو رمز جهاد طويل ، وعنوان حياة سعيدة ! .

فأحببنا أن ندلهم على عيد أعظم وأجل ، وهو عيد الدستور السماوى الذى احتفل فيه الإسلام احتفالا مدويا جامعا بإكمال الدين وإتمام النعمة وإعلان الإنسانية بأنه دين الله الذى لا يُبتغى غيره ولا يقبل من أحد سواه « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

نزل القرآن الكريم على الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه فى مدة رسالته ، وهى ثلاث وعشرون سنة ؛ قضى منها ثلاث عشرة بمكة ، وعشراً بالمدينة .

وفى السنة العاشرة التى لحق فيها بالرفيق الأعلى حج حجة الوداع ، ولم يحج

مكتبتنا العربية

بعد الهجرة غيرها [١] . ووقف معه بعرفة مائة ألف أو يزيدون ، وشهدوا جميعاً هذا الحفل الإسلامى الرائع الجامع الذى لايشهد التاريخ مثله أبدا ، ووافق الوقوف يوم العيد الأسبوعى خير يوم طلعت عليه الشمس بشهادة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

وبعد عصر هذا اليوم الذى جمع الله فيه للمسلمين عيدين عظيمين : عيد الجمعة وعيد عرفة - وإن شئت فقل عيد الأضحى - نزلت هذه الآية الكريمة تبشر المسلمين ببشائر ثلاث ، هن جماع المجد والعز والخير كله : بلوغ دينهم مبلغ الكمال فى حدوده ومعالمه ، وفرائضه وأحكامه ، وحلاله وحرامه ؛ وإتمام نعمة الله عليهم بالنصر والعزة والتمكين فى الأرض ، ودخولهم البلد الحرام آمنين مظفرين ؛ واختيار الإسلام من بين سائر الأديان ديناً لهم ، رضيه الله وأحبه وأظهره على الدين كله ، وجعل السعادة كل السعادة فى الاهتداء بهديه ، والشقاوة كل الشقاوة فى المخالفة عن أمره .

* * *

كان بين نزول هذه الآية وبين انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى أحد وثمانون يوما نزل فيها عليه آية الكلالة [٢] آخر سورة النساء ؛ وسورة النصر ، وآيات الربا . وقد قيل فى كل من هذه الآية وما نزل بعدها إنه آخر ما نزل من القرآن ، وهذا على حسب علم القائل وفهمه . والحق أن آخر ما نزل باطلاق ولم ينزل بعده شىء من القرآن ألبتة ، قوله تعالى « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كلُّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » فقد توفى صلى الله عليه وسلم على إثر ليال بعدها ! .

وأياً ما كان الأمر ، فلن يعارض نزول هذه الآى من بشارة إكمال الدين شيئا ؛ فإن ما قارب الشىء يعطى حكمه ، ولا سيما إذا كان التمام موثوقا به ، لايحوم حوله شك ولا ريبة ، وذلك كما يقول الملك وهو على طرف التمام من الغلبة والنصر : تم لى ما أردت ، وكما يقول المعنى بالصلاة لأول وقتها ولما يدخل : دخل الوقت .

* * *

[١] وأما قبل الهجرة فكان يحج كل عام ، قبل الرسالة وبعدها .
[٢] الكلالة من مات ولم يترك أصلا ولا فرعا

مكتبتنا العربية

بهرت اليهود هذه البشائر ، وهم أشد الناس عداوة وحسداً للإسلام والمسلمين فأرادوا أن يعنتوهم بما ظنوا أن لاجواب عنه ! ويغيظوهم بما حسبوا أن لا شفاء منه ! وغاب عنهم أن الله خاذلهم على يد الفاروق من أعز به الإسلام ، وجعل الحق على لسانه وقلبه ؛ قدموا أحدهم وهو كعب الأحبار (١) ولم يكن أسلم بعد ، فوجه لأمير المؤمنين مقالته فى لهجة المتعنت أو الفرح أو الشامخ ! فما كان من الفاروق إلا أن ألجمه بجواب لا يقال إنه مسكت فحسب ، بل يقال ـ ولا مبالغة ـ إنه قاصم الظهر ، يبهت منه الذى كفر ! .

أجابه أمير المؤمنين بأن منزّل القرآن ـ وقد أحاط بكل شىء علما ـ أنزل هذه الآية الكريمة فى عيدين عظيمين لا فى عيد واحد ، وفى أكرم مكان وأعظم حفل شهده التاريخ . فنحن لا نتخذ يوم نزولها عيداً من تلقاء أنفسنا ، ولا نبتدع فى دين الله ما ليس منه كما تصنعون ؛ ولكنا نتخذ يوم نزولها عيداً بشرع الحكيم العليم ، الذى هدانا إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

* * *

هذا هو عيد الدستور السماوى الذى ورثه الله المصطفين من عباده ، وكتب فيه سعادة الدارين لمن ينصفون أنفسهم ويستعملون عقولهم ولا يدنسون فطرة الله التى فطر الناس عليها .

ولكن ما الحيلة فى أقوام ركبوا رءوسهم ، واتبعوا أهواءهم . وعموا أو تعاموا عن هذا النور المبين والهدى الحكيم ، فراحوا يطلبون حتوفهم فى دستور أرضى لا يغنى من الحق والسعادة شيئاً ؟!! .

إن الدستور الوضعى ـ كما يقول واضعوه ـ هو مجموع القواعد والقوانين التى تبين سلطة الحاكم وحقوق المحكوم وعلاقة كل منهما بالآخر ، وطرق توزيع السلطة واستعمالها ، وكل هذا تكفل به الدستور السماوى وبينه أتم بيان وأحسنه وقام بتطبيقه المسلمون الأولون ، رعاة ورعية على خير وجه وأكمله ، أيام كانوا

---

(١) لأنه أعلمهم بالشرائع وأدراهم بالتوراة ، ولما رضوا به نسب اليهم القول فيما جاء من الروايات « قالت اليهود لعمر » الخ وأسلم كعب فى عهد عمر رضى الله عنه ، وفى إسلامه مقال نفوض فيه الأمر إلى الله عز وجل .

مكتبتنا العربية

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ بكلية أصول الدين

— ٣ —

تحدثنا فى الكلمة الماضية عن رأى ابن سينا فى مشكلة العمل والبطالة . أو ـ بلغة أيامنا هذه ـ مشكلة الضمان الاجتماعى . وكان فى النية أن نسوق الحديث بعد هذا الى رأيه فى مسألة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع بصفة عامة . إلا أننا

ملوك الدنيا وسادة العالم ، وأيام كانت شعوب أوربا خاضعة لملوك وأمراء يزعمون أنهم موكلون بمصالح البشر ، اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، فعليهم للملوك السمع والطاعة ، وليس على الملوك لهم حق ولا واجب !.

ولقد ناضلت هذه الشعوب نضالا عنيفاً جرت فيه الدماء وأزهقت فيه الأرواح ، حتى نالت حقوقها المسلوبة ، وحريتها المغصوبة ، بعد ثورات عواصف حطمت فيها الشعوب معاقل الظلم والاستعباد ، ودكت صروح العسف والاضطهاد !.. وكان آخر مغنم لهذا الكفاح الطويل المتواصل تلك الدساتير الوضعية التى اصطلحوا عليها . . ثم قدسوها تقديساً لو ظفر منهم ببعضه الدستور السماوى لعاشوا فى رغد من العيش لن ينالوه فى ظل تلك الدساتير أبدا ! ! !

* * *

أما بعد ، فإذا كانت الأمم الغربية قد ناضلت وقاتلت فى سبيل دستورها الوضعى حتى كتبته بدماء الثورة . فقد منحنا الله دستوراً أجل وأعظم نغنم به مغانم الخير والعز والظفر ، دون أن نخسر شيئا . وإذا كانت الأمم الغربية تبتهج بدستورها وتفرح ، فان المسلم الحق بدستوره الحق أعظم ابتهاجا وأشد فرحا .

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور . وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

مكتبتنا العربية

رأينا من الخير أن نعقب على البحث الماضى ببضع مقارنات وتعليقات فى كلمات محدودة موجزة .

١ — الشيخ الرئيس كان مسلما قبل أن يكون فيلسوفا ، وقد فهم الإسلام حق الفهم ، وعرف الغايات التى جاء من أجلها والوسائل التى رأى اتخاذها لبلوغ هذه الغايات ، فكان لا بد إذاً من أن يتأثر فى تفكيره وعلاجه للمشكلات الاجتماعية والسياسية والفلسفية بهذا الدين الذى نشأ عليه ، وهذا التأثر نجده واضحا فى كل كتاباته فى هذه النواحى وغيرها ؛ كما نجده قد تأثر فى ذلك بلا ريب بما درس من الفلسفات ، وكان له بعد هذا وذاك رأيه الخاص بعد التفكير والموازنة والتمحيص .

ولسنا نحاول أن ندخل فى الإسلام كل تفكير نراه طيبا ، وكل علاج نراه عادلا لبعض ما نحسه من مشكلات ، كأن نقول مع القائلين بأن الإسلام دين اشتراكى وديموقراطى وما الى ذلك ، إن الإسلام أسمى من ذلك كله ، إنه دين أصيل له أسسه الخاصة وطابعه الخاص ، وإن غايته إسعاد الفرد والمجتمع والإنسانية كلها فى كل زمان ومكان ، وذلك بتعميم العدل وإشاعة الرحمة والتعاطف بين الناس جميعا ، لا فرق بين دين ودين وجنس وجنس .

هذا عمر بن الخطاب يمر فى بعض عهوده رفع الجزية عن كل من يضعف عن العمل من أهل الذمة ، وبأن يعطى من مال المسلمين ما يكفيه هو وعياله ما أقام بدار الإسلام . لقد رأى ذات يوم يهوديا يستجدى ، وعلم أنه ألجىء الى هذا بسبب الجزية والسن والحاجة ، فأمر برفع الجزية عنه وعن أمثاله وترتيب نفقة جارية له مدة حياته ، وقال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه فى هرمه ؛ وفى سفره الى دمشق أمر بمثل لهذا لقوم من النصارى ابتلوا بالجزام فلم يجدوا الى العمل سبيلا .

وكان من هذه السياسة العادلة ، التى شملت المسلمين واليهود والمسيحيين ، أنه لم يكن فى عهد عمر الفاروق من يشكو الحاجة ، ما دامت الدولة كانت تسارع لعون العاجز والمحتاج . وكان الأطفال يعتبرون عاجزين عن العمل ، ولهذا كان يفرض عمر لهم أيضا من بيت المال ما يكفيهم ، كما يفرض لولى كل طفل رزقا يعينه على تنشئته وتربيته .

مكتبتنا العربية

وكذلك كان الأمر فى عهد الفاروق الثانى ، عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، حتى ليقول يحيى بن سعيد فيما يرويه الأستاذ سيد قطب فى كتابه « العدالة الإجتماعية فى الإسلام » : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من يأخذها ، فقد أغنى عمر ابن عبد العزيز [أى بعد له] الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم » .

هذه الروح النبيلة ، من العدل والرحمة والتعاطف العام . التى هى من لباب الإسلام ، قد فهمها ابن سينا وأمثاله ، فتأثروا بها دون ريب فى تفكيرهم الاجتماعى والسياسى ، وكان من الشيخ الرئيس رأيه الذى عرفنا فيما سبق عن مشكلة العمل والبطالة . ومن نافلة القول أن نلاحظ هنا أن أوروبا لم تفكر فى شىء من هذا الضمان الاجتماعى إلا فى هذا القرن ، أى بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا بعد ظهور الإسلام .

٢ — يقول ابن سينا : « ومن الناس من رأى قتل الميئوس من صلاحه منهم [أى من الذين حيل بينهم وبين الكسب بأمراض وزمانات] ، وذلك قبيح ، فإن قوتهم لا يجحف بالمدينة » . على أنه ، مع هذا ، يرى إلزام القادر من قرابات هؤلاء الذين لا يرجى صلاحهم ببعض نفقتهم فى غير إجحاف ولا إلحاح .

هؤلاء الذين رأوا هذا الرأى القاسى العنيف ، نرى منهم بعض مفكرى « اسبارطة » ، كما نرى منهم أفلاطون وأرسطو . إن أفلاطون يرى فى المقالة الخامسة من الجمهورية ، قتل الطفل ناقص التركيب ، والضعيف عديم النفع ، والمريض لا يرجى له شفاء ؛ وكذلك يذهب إلى مثل هذا أرسطو فى كتابه (السياسة) . لكن الشيخ الرئيس رأى — بحق — أن فى ذلك انتهاكا لحرمة النفس الإنسانية بلا ذنب جناه هذا المريض ، أو ناقص التركيب ونحوهما ، وبخاصة — كما يقول بحق أيضا — وتكاليف حياتهم لا تعتبر عبئاً على الدولة بحال ما . ثم من يدرى بأن هذا النحو من الناس ضعاف الأجسام ، لا يكون من أحدهم خير كثير من الناحية العقلية ! والتاريخ مصداق هذا الذى نقول فى كثير من الحالات .

هذا فيما يتعلق بابن سينا وفلاسفة العصر القديم ؛ وفى هذا العصر الحديث نجد كذلك المجال واسعاً للمقارنات بين تفكير الشيخ الرئيس وتفكير بعض

مكتبتنا العربية

فلاسفة أوربا فى هذه المسألة ، نعنى مسألة العمل والعمال والعاجزين عن العمل وما يكون لهم على الدولة من حق توفير العيش الطيب لهم .

« عندنا مثلا ، «آدم سميث» الفيلسوف الأسكتلندى المتوفى عام ١٧٩٠م إنه يعتبر العمل هو مصدر الثروة ؛ وأن قيمة الشيء لا ترجع إلى صفات ذاتية فيه ، بل إلى العرض والطلب . كما كان يرى أن الإنسان ينجح فى إفادة المجتمع وهو يعمل لصالح نفسه ، أكثر مما لو قصد تخصيص مجهوده لصالح المجتمع ، وفى هذا يقول : « لم أعرف أن خيراً كثيراً تم على أيدى أولئك الذين يتخذون من الصالح العام تجارة لهم »[1] .

هـذا الفيلسوف كان لا يرى فرض ضريبة على الأرباح ، لأنه من العسير تقدير قيمة رأس المـال تقديراً حقاً صادقاً ، وذلك بعكس الأراضى ، كما أنه من السهل الفرار برأس المـال إلى نواح أخرى عند ما يحس صاحبه ثقل عبء الضريبة عليه[2] . ومن الواضح أن فى هذا الرأى خسارة على الدولة ، وتضييع جانب كبير من الضرائب التى يجب جبايتها لتنفق فى صالح الفقير والمحتاج من المواطنين ولهذا لا يذهب إلى هذا الرأى الاقتصاديون فى الوقت الحاضر .

وعلى كل ، فابن سينا كان أبعد نظرا ، وأرفق بالفقراء والمحتاجين لعون الدولة حين رأى - كما قدمنا من قبل - فرض ضريبة على الأرباح الطبيعية والأرباح المكتسبة لتصرف فى خير المعوزين . ولعل الضريبة على المـال تدخل فيما يسميه الأرباح المكتسبة .

٤ — قدمنا فى الكلمة الماضية أن ابن سينا كان يرى أنه يجب أن يكون لكل فرد من الأمة ، من أية طبقة اجتماعية يكون ، مقام محدود وعمل معروف وإذاً فالبطالة والتعطل عن العمل محرمان تماما ؛ إذ لا يصح أن يكون أحد عالة على أحد متى كان قادراً على العمل ، كما لا يصح ألا توفر الدولة لكل قادر على العمل عملا يكسب منه عيشه فى كرامة .

---

[١] ص ٧٧ من كتاب النظام الاشتراكى للدكتور أحمد نظمى عبد الحميد والدكتور راشد البراوى ، نشر مكتبة النهضة سنة ١٩٤٦ م

[٢] النظام الاشتراكى السابق ذكره ص ١٩٥

مكتبتنا العربية

حق كل مواطن فى أن يعمل ، هـذا الحق أو الواجب الذى يقرره ابن سينا فى هدوء ، ولا يجد حاجة فى تقـريره إلى الثورة على شىء من النظم القـائمة ؛ وكذلك حق العاجز عن العمل ، لأنه لايجده أو لأنه عاجز عن القيام به ، وواجب الدولة فى ضمان العيش المقبول الكريم لكل فرد من المواطنين ـ نقول ، هذا الحق وذاكهما اللذان لم يجد ابن سينا أى عناء فى تقريرهما ، نرى أنهما لم يتقررا فى أوربا إلا بعد ثورات اجتماعية ، ثورات أريقت الدماء فى بعضها ، على أنهما مع هـذا من الحقوق الطبيعية للإنسان باعتباره إنسانا عضواً فى مجتمع أو مواطنا فى دولة .

ها هو ذا الفيلسوف الألمـانى فختة "Fiehte" (١٧٦٢ — ١٨١٤ م) ، يرى أنه على الدولة أن تكفل لكل فرد من أهلها عملا ، وهذا ما يسمى بمبدأ حق العمل الذى نادى به هذا الفيلسوف [١] .

ومن بعد « فختة » ، نجد « كارل ماركس » المتوفى عام ١٨٨٣ م ، يذكر فى البيان الذى ضمنه مطالب الحزب الشيوعى فى ألمانيا « أنه يجب أن تضمن الدولة المعيشة لجميع العمال ، وأن تتولى أمر العاجزين عن العمل » [٢] . يذكر هذا المبدأ ويعمل على تقريره وتنفيذه فعلا ، بعد أحداث وخطوب جسام ، ومع هذا لم يسعد برؤيته نافذا فى أوربا كما كان يتمنى .

* * *

وبعد ، من هذه التعليقات والمقارنات التى قدمنا ، نعـلم كيف كان تفكير ابن سينا سليما وأصيلا فى هذه المشكلة ، مشكلة العمل والبطالة ، وأن أوروبا بصفة عامة ، لم تفكر فى أن تصل الى مثل ما قرره الإسلام فى هذه الناحية إلا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا من ظهور الإسلام .

والآن ، إلى المشكلة الثانية ، نعنى مشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع ، فى العدد الآتى إن شاء الله تعالى ؟ الحديث موصول

---

[١] النظام الاشتراكى ، ص ١٧

[٢] نفس المرجع ، ص ٦١ - ٦٢

مكتبتنا العربية

شعراء الأزهر

٦ ـ الشيخ مصطفى عبد الرازق (باشا)

شيخ الأزهر الأسبق

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

ترجع معرفتى لآل عبد الرازق الكرام ، لقريب من أول عهدى بالأزهر الشريف ؛ فتمدحضرت القطر والشذور وابن عتيل والأشمونى ، فى جامع محمد بك أبى الذهب ، على المغفور له العلامة الثبت الحجة ، الشيخ محمد عليان ، طيب الله ثراه ! وكان أبرز الدرس ـ على كثرة البارزين فيه ـ شخصان نشيطان ، يلفتان النظر بخصائصهما المميزة ، وبمشاركتهما للشيخ فى مشكلات المسائل ، مشاركة تنبىء عن تعمق فى البحث ، وعن ذكاء ممتاز ؛ فأما أحدهما ، فهو أسن الطلاب ، وأجسمهم ، وأعلمهم ، المرحوم الشيخ حسين البيومى عضو جماعة كبار العلماء ؛ وقد نال شهادة العالمية ونحن فى مقدمة الأشمونى ، فكان انتقاله من صفوف الطلبة ، إلى صفوف العلماء سريعاً مبكراً سهلا ، بقى موضع عجبنا وإعجابنا زمناً طويلا . وأما الآخر ، فهو صاحب المعالى على عبد الرازق باشا وزير الأوقاف الأسبق ، ذو الطربوش الفريد فى الأزهر يتوج زياً عربياً ثميناً أنيقاً كل الأنيق ، كاملا كل الكامل ؛ وهو « سكرتير » شيخنا العظيم ؛ يكلفه ـ أبداً ـ بالكشف عما يعرض من الألفاظ الغامضة فى المعاجم اللغوية فيؤدى رسالته على خير الوجوه .

وصلتنا بالسادة القاياتية ، صلة ورثناها عن الآباء والأجداد : لأنهم الشيوخ الروحيون لمصر الوسطى ؛ وكان لشباب هؤلاء ، وشباب آل عبد الرازق ، وشباب آل أبى العيون ، مصاطب ، وإن شئت فقل : صالونات : يجتمعون فيها على شراب الشاى البديع ، يتنقلون عليه بالأدب الرفيع رواية وإنشاء ، فى الأرياف لقرب بلادهم بعضها من بعض ؛ وفى القاهرة ، لأن الأزهر يجمعهم ؛ ولتقاربهم فى الأسنان وفى الدراسات .

مكتبتنا العربية

وكان يختلف الى مجتمعاتهم كثيرون من الشباب المثقف من مختلف الأقاليم المصرية، والأوطان العربية؛ فيتباحثون، ويتساجلون، ويتناشدون. وعن طريق مشايخنا القاياتية تصل إلينا طرائف مما يدور فى مجالسهم، فنتلقفها، ونحرص على حفظها وروايتها، كما نحرص على روائع النصوص الأدبية.

ومما بقى عالقاً بذهنى من تلك الطرائف، أن الشيخ مصطفى عبد الرازق - وكان يعتبر رئيس الشلة - طرح البيتين المنسوبين لولادة بنت المستكفى بالله الأموى، الخليفة بالأندلس:

أنا - والله - أصلح للمعالى وأمشى مشيتى، وأتيه تيها
أجر على الورى ذيل التصابى وأعطى قبلتى من يشتهيها!

للتشطير، وجعل جائزة المتفوق، بيتين من شعر الرئيس: وكان المتفوق المغفور له الشيخ إبراهيم القاياتى؛ فقال الشيخ مصطفى عبد الرازق:

لله إبراهيم من شاعر ذى فطنة فى الشعر وقاده
ولد فى التشطير من لطفه ما لم تضعه قبل ولاده!

والتورية فى: تضعه قبل ولاده غنية بروعتها وجمالها عن أن يشار إليها. والذنب فى إغفال ذلك التشطير، على خيانة الذاكرة، لا على حساب الوفاء.

ومن تلك الطرائف فى «الشاى» وتروى للزعيم القاياتى المغفور له الشيخ عبد العظيم، طيب الله ثراه:

وعسجد الشاى يجلى فى قالب من لجين
هذا يروق لقلبى وذا يروق لعينى

وفى «شروط» حانة «الشاى» وفيه مجانة:

إذا ما جاوز الندمان خمساً مع السلطان والساقى الأديب
فـ . . . . أم فتى دعانا و . . . . أم فتى مجيب

إلى غير ذلك، مما ذهبت به - مع الشباب - الأيام.

* * *

والشيخ مصطفى عبد الرازق، أحد ثلاثة صرفتهم الكتابة عن الشعر، بعد

مكتبتنا العربية

أن كان وكدهم فى أول حيواتهم : السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، والشيخ عبدالعزيز البشرى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ؛ والمنفلوطى أشعرهم ، والبشرى أضعفهم ؛ وقد عاود هذا ، الحنين إلى الشعر ، فى عهده الأخير ، فنشر قصيدة له ، فى السياسة قدم لها بمقدمة قال فيها : إن له سبعة وعشرين عاما لم ينظم شعراً ؛ وكأنه يباهى بقصيدته ، التى كان الضعف والتكلف يشيعان فى أطرافها ؛ فكتب إليه أحد عشاق كتابته ـ كما أسر بذلك إلى ـ « قصيدتك المنشورة فى السياسة ، ردتك إلى الخلف سبعة وعشرين عاما ! » وفهم البشرى « النكتة » وهو سيد من يفهم . ! فلم يعد إلى الشعر أبدا ! .

وما زال المنفلوطى يقول الشعر فى الفينة بعد الفينة ـ على حد تعبيره ـ حتى لقى الله .

فأما الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فقد انصرف عنه انصرافا تاما منذ عهد بعيد ، لعله بعد أن نال شهادة العالمية . يقول المغفور له الشيخ رشيد رضا فى تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده : « وممن تخرج عليه فى الكتابين «أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز» فكان كاتباً مجيداً ، وشاعراً بليغا ، المرحوم السيد لطفى المنفلوطى ، وله قصائد فى مدحه ؛ ومنهم الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ على عبد الرازق وكل منهم كاتب بليغ ؛ وكان الشيخ مصطفى يجيد نظم الشعر ، وقد مدح الأستاذ الإمام بشعره ، والظاهر أنه تركه بعد ذلك » اهـ بنصه [1] .

* * *

وانصراف هذا الثالوث عن الشعر إلى الكتابة ، كان توفيقا من الله عظيما ؛ فإننا لم نخسر كثيراً إذ لم نظفر من شعرهم بالكثير ؛ وكنا نخسر الكثير الذى لا يعتاض بمثله لو خسرناهم كتابا ؛ فقد انفرد كل واحد منهم بمذهب كتابى لا يشتبه ، ولا يشارك فيه .

فأما البشرى ، فقد أعاد الطريقة « الجاحظية » جذعة : ألفاظ بكر ، جذلة فخمة ، تحمل مشابه البداوة ؛ وأسلوب فحل قوى يظاهر فيه الحسن المجلوب ، حسنا غير مجلوب ؛ ومعنى شريف فى منطق دامغ عميق ؛ وسخرية بارعة لاذعة ؛ واستقصاء لا يدع فيما يعرض له من المعانى لغيره فضلا . وعلى الجملة : طريقة البشرى ،

(١) ـ ص ٧٥٧ ج ١ .

مكتبتنا العربية

هى طريقة الجاحظ مجددة مجلوة فى مطرف قشيب ؛ تحس ذلك فى يسر ، إذا قرأت للبشرى ، ثم قرأت الجاحظ فى غير « البيان والتبيين » فإن الجمع يغلب على هـذا الكتاب ، وإنما يلتمس أسلوب الجاحظ فى مثل « الحيوان » وغيره من رسائله وكتبه .

وأما المنفلوطى ، فهو إمام « السهل الممتنع » فى العصر الحديث غير مدافع ؛ والنقاد يعرفون السهل الممتنع ، بأنه الأسلوب الذى يقرؤه القارىء ، فيرى أنه يستطيع مثله ، ولو خدش أنفه بظفر كلب ما استطاعه . وكأنهم يريدون أن قلب الحقائق أيسر منه منالا ، فعاود قراءة المنفلوطى فى أى كتبه شئت ؛ ثم قل لى : ماذا ترى ؟!

وأما أسلوب الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فذلك الطراز المنمنم ، الذى تقطر الرقة من أعطافه ؛ ويترقرق الحسن فى أطرافه ؛ ويجمع لك بين نفحات الزهر ونشوات الخمر . ونفثات السحر ؛ وهل رأيت الشيخ مصطفى عبد الرازق فى ذوقه العام : فى سمته ، فى لباسه ، فى حديثه ، فى نقاشه ، فى خطابه ؟ ذلك هو مصطفى عبد الرازق فى كتابته : خيوط عربية متخيرة سدى ولحمة ، نسجتها بغداد ، وفصلتها باريس تفصيلا هندسيا محكم الضبط ، رائع الانسجام ؛ تزين معانيه ألفاظه ، وألفاظه زائنات المعانى .

ليس فيهـــا ما يقال له كملت لو أن ذا كملا

* * *

أولئك رجال ، أسأل الله شطاطا ، لو سألتـه تعالى أن يعوضنا فيهم خيرا ! فرحمة الله عليهم . !

وأختم هذا البحث ، بما أمكننى الوصول إليه من أشعار المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا . قال المغفور له الشيخ رشيد رضا فى « تاريخ الإمام » :

لما قدم الأستاذ الإمام من سياحته فى هذا العام سنة ١٩٠١ فى أوربة وتونس والجزائر هنأه بالقصائد الطنانة جماهير العلماء والأدباء فى الأزهر . . . ونذكر هذه الأبيات للشاب الذى زاحم فى بدايته أهل النهاية ، تنشيطا له على العناية بالأدب وهو الشيخ مصطفى نجل حسن بك (باشا) عبد الرازق . قال :

مكتبتنا العربية

أقبل ، عليك تحية وسلام يا ساهرا والمسلمون نيام
تطوى البلاد ، وحيث جئت لأمة نشرت لفضلك بينهم أعلام
كالبدر . أنى سار يشرق نوره والحق ، أنى حل فهو إمام
إن يقدروا فى الغرب علمك قدره فلمصر أولى منهم والشام
فيك الرجاء لأمة لعبت بها يلهى الصغار ، وجدت الأيام
لا زلت غيظا للضلال وأهله والله يرضى عنك والإسلام

* * *

ورثاه بقوله :

رزىء العلم فيك والإسلام يا فقيد الهدى ، عليك السلام !
كنت طودا إذا الخطوب ادلهمت لم تنل همك الخطوب الجسام
رجل كان حين يسلك فجا تتحامى طريقه الأيام
يا دفين القلوب ، قد هابك الدهر ، فكيف اعتدى عليك الحمام
إن فى قبرك السماحة والفضل ، وفيه الثبات والإقدام
كان مغناك للعفاة رحيبا ثبتت فى رحابه الأيتام
لم تكن تحمل الضغينة والحقد وإن نال من أذاك اللئام
طيب القلب لم تهم بشر طاهر الذيل لم يمسك ذام
كنت حى الفؤاد تصدع بالحق فتسلوى عنانها الأوهام
كنت سِلم الطباع ، والدهر حرب ساهر العزم ، والقلوب نيام
كنت ترمى فى كل علم بسهم لا تباريه فى السداد سهام
أنت خلت فى الحياة ثناء تتغنى بذكره الأقلام
جئت هذى الحياة والدهر كهل وتوليت والزمان غلام
إن قلبا أصفاك بالود حيا صدعته بموتك الآلام
كان فى هذه الحياة رجاء فدفناه يوم مات الإمام
رحم الله منك نفس كريم وقليل من النفوس الكرام

ولا ريب أن معانى هذا الشعر وقوافيه على قوتها الواضحة ، كانت فى حاجة إلى التركيز والتمكين ، وعذره أنه كان فى طور المرانة ، لا فى إبان النضج .

رحمة الله عليه ؟

مكتبتنا العربية

لغويات

ميـة — مايـة

لفضيلة الشيخ محمد على النجار
مدرس بكلية اللغة العربية

هذان وجهان يجريان فى استعمال اسم العدد « مائة » .

فالاستعمال الأول « مية » يجرى على ألسنة العامة . وهو — كما لا يخفى — انحراف عن الصواب فى المنطق وتنكب للجادة . وهمّى هنـا أن أخرج هذا الوجه من الاستعمال وأبين مأتاه ومبعثـه فى ألسنة العامة . وسترى أنه ليس بعيدا عن النهج العربى .

فأصل ذلك تخفيف همزة « مئة » وإبدالهـا ياء ، وهو قانون تخفيف الهمزة المفتوحة المكسور ما قبلها ؛ إذ كان الكسر قبلها يجتذب الياء . وتخفيف الهمز سنة الحجازيين ومن صاحبهم وجاورهم . وذلك أنهم يرونها ثقيلة فى النطق فيفرون منها بتخفيفها وحذفها تارة ، وإبدالها حرفا آخر من حروف اللين تارة أخرى ، على منهج مدروس فى كتب العربية . ويبقى التميميون على الهمزة فلا يخففونها ، ويسميهم علماء العربية أهل التحقيق ، أى أنهم يحققون الهمز ، ولا يفعلون به كما يفعل الحجازيون ، ونرى العامة يجرون فى ألسنتهم فى الهمز على منهج الحجازيين فى التخفيف ، فيقولون : الراس فى الرأس ، والبير فى البئر ، والمرة فى المرأة .

وتخفيف همزة مئة بإبدالها ياء قرأ به القراء فى القرآن الكريم ، وذلك قراءة أبى جعفر يزيد بن القعقاع أحد القراء العشرة المتوفى سنة ١٣٠ . وفى النشر[1] : « الهمزة المفتوحة قبلها كسرة ، يبدلها أبو جعفر ياء . ومن ذلك مئة وفئة ، وتثنيتهما » ، وجاء هذا أيضا فى المأثور عن العرب ، ومما ينسب إلى زرقاء اليمامة فى قصة لها :

ليت الحمام ليـــه إلى حمامتـــه
ونصفـــه قديه تم الحمام ميـــه

---

[١] ١/٢٦٠ طبعة دمشق .

مكتبتنا العربية

فترى أن النطق بالياء فى « مئة » بدل الهمزة عربى صحيح . وإنما زاد العامة تشديد الياء فى هذا اللفظ فقالوا : ميّة ، وهذا مالم يعرف عن العرب . ولكنه مع ذلك منهج مألوف لهم جروا عليه فى بعض ماحذفت لامه ، تعويضا عن المحذوف . فقد جاء عنهم الفم فى الفم ؛ قال العجاج .

ياليتها قد خرجت من فمه حتى يعود الملك فى أسطمه[1]

وحكى اللحيانى أنه يقال فم وافمام ، قال ابن مالك فى شرح التسهيل عقب سوق هذه الحكاية : « فعلم أن التشديد لغة صحيحة ؛ لثبوت الجمع على وفقها . فليس بمصيب من زعم أن التشديد لم يستعمل فى غير ضرورة » ، ومما شددوه من هذا الضرب الدم ، قالوا فيه : الدم ؛ قال[2] أبو خراش الهذلى يرثى خالد بن زهير :

أرقت لهم ضافنى بعد هجعة على خالد فالعين دائمة السجم
إذا ذكرته العين أغرقها البكى وتشرق من تهما لهاالعين بالدم

وأنشد ابن مالك فى شرح التسهيل قول الشاعر :

أهان دمّك فِرْغا بعـــد عزته يا عمرو بغيك إصرارا على الحسد
فقـد شقيت شقاء لا انقضاء له وسعد مرديك موفور على الأبد

وقول آخر : والدم يجرى بينهم كالجدول .

وأنكر الكسائى تشديد ميم الدم ، فهو[3] يقول : « لا أعرف أحدا يثقل الدم » ، وقد مر بك من الشواهد ما يدفع حكمه هذا . وجاء تشديد الأب والأخ ، حكى ذلك الأزهرى ، وأنه يقال : استئب أبا أى اتخذ لك أبا ، وقد جعل التشديد فى أب تعويضاً عن المحذوف كما قالوا قن للعبد المملوك وأصله قنى من القنية . ويجرنا ذكر تشديد الأب إلى سوق قصة أوردها الشيخ يس فى حاشيته[4] على التصريح ، وذلك أن بعض الرؤساء قال لشهاب الدين القوصى : أنت عندنا مثل الأب ، وشدد الباء ، فقال الشهاب : لا جرم أنكم تأكلوننى[5] ! يريد الشهاب

[1] أسطم الشيء : وسطه ومعظمه ، والضمير فى « خرجت » كأنه يريد به كلمة يتكلم بها فى شأن من يتحدث عنه . [2] أنظر ديوان الهذليين طبع دار الكتب ٢/١٥١ .
[3] اللسان [دمى] . [4] فى مبحث المعرب والمبنى [اعراب الأسماء الخمسة] .
[5] فى حاشية الشيخ يس : تأكلون ، والوجه ما أثبته .

مكتبتنا العربية

أن الأب مشددا متعارف فى العشب الذى تأكله البهائم ، وكأن الشهاب يرمى بذلك إلى أن هذا الرئيس لا يعرف له حقه ويتهضمه ، فهو يأكل كما يأتى الذئب فريسته ، وبذلك ترى أن مادة الأكل هنا لها لطف وماء ، ويقول الشيخ يس : « ولو قال القوصى : لا جرم أنكم ترعونى كان ألطف كما لا يخفى على أهل الذوق » وقد عرفت ما فى هذا . ويزعم الشيخ يس أن لا وجه لإنكار القوصى التشديد هنا ، والقوصى — فيما يبدو — كان عاتبا على الرئيس فأظهر عتابه فى هذا الرد وقد بناه على المتعارف فى اللغة كما رأيت . ويقول الشيخ يس أيضا : « ولا وجه لقول بعضهم : من يشدد الباء من الأب الذى هو الوالد ما يكون إلا دابة » .

والاستعمال الآخر « ماية » نسمعه كثيرا من المثقفين . وسبب هذا الخطأ رسم مائة بالألف ، وقد كان هذا الرسم مبعثه دفع التباس « مائة » لو كتبت على وجهها « مئة » بعبارة « منه » مع ملاحظة أن الكتابة فى القديم كانت تخلو فى الأكثر من النقط اعتمادا على الفهم من القرائن والسياق .

وقد استرعى نظرى أن وجدت هذا الخطأ فى النطق من دهر غير . فقد نبه عليه نحوى أندلسى زار مصر فى سنة ٨٢٥ من الهجرة . وأوطنها حتى مات بها سنة ٨٥٣ ، وصلى عليه بالأزهر . ذلك هو[1] محمد بن محمد الراعى صاحب التصانيف الكثيرة فى النحو . فله شرح الآجرومية وإعراب الألفية . وله الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية . وهذا الكتاب الأخير هو الذى وقفت عليه من كتبه ، وقد عنيت به عناية خاصة ، لأنه يسجل بعض ما كان فاشيا فى عصره من الأخطاء اللغوية فى مصر . وسأنقل عنه فى هذا المقام بعض ما أراه صالحا للنشر فى « لغويات » .

وكتاب « الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية » من مخطوطات دار الكتب المصرية (٣٣٥ نحو) . وإنى أوثر أن أنقل لفظه من كتابه . قال : « سأل بعض الطلبة عن قراءة العامة المنتمين إلى الخاصة — وهم أكثر القضاة وأتباعهم من الموقعين والشهود ونحوهم — لفظ مائة فى تاريخ المكاتيب ونحوها بفتح الميم ومد الألف ، على صورة كتابتها فى صناعة الرسم ، فيقولون : ماية .

---

[1] انظر ترجمته فى الضوء اللامع للسخاوى ، وبغية الوعاة للسيوطى .

مكتبتنا العربية

« فأجبت أن ذاك خطأ فاحش ولحن قبيح . وكأنهم لم يقرءوا كتاب الله عز وجل . قال الله - عز وجل - ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين . فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، فأماته الله مائة عام ، إلى غير ذلك من الآيات . والصواب أن يقرأ لفظ « مائة » بميم مكسورة بعدها همزة مفتوحة وتاء مربوطة هى محل الإعراب ولا يجوز مد الألف بوجه من الوجوه ، ويجوز تسهيلها بقلبها ياء؛ قال ابن مالك : وياء اقلب ألفا كسرا تلا ، ومنه قول زرقاء اليمامة :

ليت الحمام ليه إلى حمـــامتيه
ونصـفه قديه تم الحمام ميه

« فإن قلت : فإذا كانت ألفها لا تمد فلم كتبت فى الخط بالألف بعد الكسرة؛ وما الحاجة لكتب هذه الألف ؟

قلت : قال أهل العلم : إنما كتبوها بالألف ليفرقوا بين « مائة » و « منه » ؛ لأنك إذا قلت فى التاريخ مثلا :

وخمس مائة ، وكتبت « مئه » بغير ألف كانت تشبه لفظ « منه » فكان يلتبس فى الخط قولك :

وخمس مئة بقولك : وخمس منه ؛ لأن صورة « مئة » و « منه » بغير الألف فى الخط واحدة ، ففرقوا بينهما بالألف ؛ كما فرقوا بين عمرو وعمر بالواو » .

وفى بعض كلام الراعى مجال للتعقب . فقد استدل على تسهيل الهمزة بقلبها ياء فى نحو مئة بقول ابن مالك :

وياء اقلب ألفا كسرا تلا

وكلام ابن مالك فى الألف اللينة التى يعبر عنها بالألف اليابسة . وابن مالك يتكلم فى هذا على قاعدة إبدال الألف ياء فى مثل مصابيح ، والإبدال فى هـذا واجب لا محيد عنه ، والإبدال فى مئة وفئة استحسانى غير واجب كما لا يخفى ، وإنما يذهب إليه بعض العرب وهم الحجازيون كما سلف لك .

هذا أمر خاص بفلان . النبل خاص بذى الخلق الحسن

يكثر هذا التعبير . وقد جرى بحث فى هذا إذ ورد فى كلام الشيخ عبد القاهر

فى أسرار البلاغة حيث يقول : « فمثاله أن يتعدى الفعل إلى شىء مخصوص يكون له من أجله حكم خاص » وقد كان من رأى من تحدث معى فى هذا الأمر أن الصواب أن يقال : « حكم مخصوص به » . ذلك أنه يقال : خص أن عليا بالنبل ، فالنبل مخصوص به على ، ولا يسوغ ذلك أن يقال : النبل خاص بعلى ؛ فإن الخاص فى هذا الأسلوب هو الفاعل ، وهو الله سبحانه فى هـذا المثال . وذكر لى محدثى أنه لا يقال - على حسب ما جاء فى المعاجم اللغوية - خص الشىء بكذا ، أى إن المعاجم خلت من إيراد هـذه المادة لازمة غير واقعة . ووجدت ما قاله صحيحاً فى بادى الرأى . ففى القاموس : « خصه بالشىء ، خصا ، وخصوصاً ، وخصوصية - ويفتح - وخصّيصىً - ويمد - وخصّيه ، وتخصة : فضله ، وخصه بالود كذلك » . وفى اللسان : «خصه بالشىء ، يخصه ، خصا ، وخصوصا ، وخصوصية ، وخُصوصية - والفتح أفصح - ، وخصيصى ؛ وخصصه واختصه : أفرده به دون غيره ، فترى أن ما يقع به التفضيل أو الإفراد سبيله فى هـذه المادة أن يوصل بباء الجر ، والوصف منه « مخصوص به » ، فأما الخاص فهو المفضّل والمُفْرد ، وأن « خص » لا يأتى لازما . وفى اللسان أن « اختص » يأتى لازما كما يأتى متعديا فيقال : اختص فلان بالأمر .

ولكنى رأيت فى اللسان النص الآتى : « ويقال : فلان مُخص بفلان أى خاص به » وفيه أيضا : « ويقال : خاص بين الخصوصية » والاستشهاد بالنص الثانى ؛ إذ كان معزوا إلى العرب ومن قولهم ، فأما النص الأول فهو تفسير لغوى ، ففى الأخذ به مجال للقول والطعن . وأعود إلى هذا النص فأقول : إنه يفيد استعمال « خاص » لازما ، فيقال : النبل خاص بفلان ، وهو ما فى عبارة عبد القاهر ، وبهذا يكون هذا الإمام بمنجاة من اللوم والتقريع .

وبقى بعد هذا مسألة تبدو للباحث هكذا : هل يأتى الفعل لازما فيقال : خص النبل بفلان ؟ والجواب عن هذا أن من الأصول اللغوية أنه إذا ورد الوصف فى العربية سوغ ذلك إيراد الفعل على وفق الوصف . ذلك أن ورود الوصف دليل على استعمال الوصف ، وإن لم نقف عليه ولم يبلغنا . ويقول ابن جنى :

مكتبتنا العربية

الفقه السياسي عند المسلمين

التكاليف ـ المسئولية ـ الحريات ـ سيادة الأمة

الأستاذ الدكتور محمود فياض

المدرس بكلية أصول الدين

رأينا فيما سلف أن الإسلام يقيم دولته على أساس التكليف الإلهى للأمة ، وأن الأمة بهذا التكليف هى صاحبة السلطان المطلق على جميع أمورها ، وأنه لهذا التكليف الجماعى أضحت الأمة مسئولة مسئولية حقيقية عن صالح الدين وصوالح المسلمين ، أمام سيدها ومالكها سبحانه ، وإنك لتجد ذلك واضحاً فى الخطاب العام الموجه إلى الأمة فى القرآن الكريم ، فى جميع الأمور . إيجابية وسلبية ، فمثلا تجد الخالق سبحانه ينادى الأمة بـ « يا أيها الناس . . . » و « يا أيها الذين آمنوا . . . » كما تجد الأوامر والنواهى موجهة إلى الأمة أيضاً « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » « وافعلوا الخير » « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وإذا حكمتم

« (١) قال لى أبو على بالشام : إذا صحت الصفة فالفعل فى الكف » ، وقال (١) أيضاً : « وحكى أبو زيد : رجل مدرهم ، قال : ولم يقولوا منه : درهم . إلا أنه إذا جاء اسم المفعول فالفعل نفسه حاصل فى الكف » .

وقد ظفرت بنص صريح فى هذا يكفينا مئونة القياس والاستنباط . فقد جاء فى كتاب (٢) الأفعال لابن القوطية : « وخص الشيء ، خصوصاً : ضد عم » .

وأنبه هنا إلى عبرة نأخذها من هذا البحث . وهو أن المعاجم التى بأيدينا قد تخلو من بعض اللغة الواردة ، فعلينا أن نتريث فى إنكار ما ليس فيها ، فقد يكون فى غير ما هو مألوف لدينا . وعلينا بعد هذا أن نعنى بإخراج الأصول اللغوية بقدر ما يتيسر لنا حتى تتسع ثروتنا اللغوية ، ويكون حكمنا فى اللغة أقرب إلى السداد . والله الموفق للصواب .

---

(١) الخصائص ١/١٢٧ (٢) الخصائص ١/٣٦٣ (٣) ص ٢٠٧ طبعة ليدن

مكتبتنا العربية

بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » ، « الزانية والزانى فاجلدوا » ، وهكذا يتجه الخطاب إلى الأمة بالتكليف فى شتى النواحى ، فى أمور العبادة ، وفى المعاملات ، وفى الشئون العامة كالحكم والقضاء أو تنفيذ أحكام الشرع ، وبذلك يقرر الإسلام أن للأمة الإسلامية كياناً خاصاً وشخصية معنوية جعلها مناط التكليف فأمرها ونهاها ، وألزمها تبعة التكاليف ومقتضياتها ، وحملها المسئولية عن صالح دينها ، وصالح أفرادها ، وصالحها فى الجملة « صالح الدين والدولة » .

والتكاليف الجماعية أضمن تحققا ، وأشد إلزاما للفرد من التكليف الفردى ، لأن الفرد فى الواقع فى التكليف الجماعى يكون مكلفا باعتبارين ، باعتباره وحدة من وحدات الأمة المخاطبة بالتكليف . وباعتباره فرداً مخاطبا بشخصه ضمن الخطاب العام للأمة ، وبعبارة أخرى ، هو مخاطب بوصفه الجماعى باعتباره لبنة قوية فى بناء المجموعة يطلب إليه العمل على خيرها ، وبوصفه الفردى باعتباره إنسانا يجب أن يقوم بالتزاماته نحو سيده ونحو إخوانه ، ومن هنا نشأ ما نسميه التضامن الجماعى الفرد والجماعة ، وتقررت بهذا التضامن مسئولية الجماعة عن صالح الفرد الذى يعتبر مقوما من مقوماتها ، ومسئولية الفرد عن صالحه ، وصالح كل فرد من إخوانه ، وصالح الجماعة بصفة عامة ، بوصف الفرد مطالبا بالعمل على سلامة البناء والمحافظة على قوته وكرامته ، ولهذا جعل الإسلام لكل مسلم حق الإشراف العام على شئون الدولة ، ومراقبة تصرف الحكام ، ولفت نظرهم إلى الأخطاء التى يرتكبونها ، وتصحيح هذه الأخطاء ، بإرشادهم إلى الحق ، ونصحهم بالمعروف ومجابهتهم بما يجترحون من مظالم ، وحمل الإسلام كل فرد يغضى أو (يتستر) على جرائم الحكام وظلمهم ، مثل ما يحتمله المجرم أو الحاكم الظالم ، وفى هذا يقول عليه السلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره ... » ويقول : « إذا كان فى أمتى من يهاب أن يقول للظالم : يا ظالم ! فقد تودع منهم » ويقول : « إذا وجدتم فى أمتى ظلما وفيهم من يستطيعون أن يغيروا فلم يغيروا ليوشكن الله أن يعمهم بعذاب » ، والنصوص فى ذلك كثيرة وهى تدور حول قوله سبحانه وتعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » ؛ وهذه هى الرقابة الشعبية بلغة هذا

مكتبتنا العربية

العصر ، التى جعلها المشرع سبحانه سيفا مصلتا على رقاب المخالفين ، حكاما كانوا أو محكومين ، وهذه الرقابة هى المعبر عنها فى لسان فقهاء الإسلام ، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى سلطة كبيرة وضعها الله فى يد كل مسلم وطلب إليه أن يحسن استعمالها ، وعنها يقول الإمام محمد عبده فى كتابه (الإسلام والنصرانية) « وهى السلطة الوحيدة فى الإسلام ، التى جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم » .

وهذا أسمى ما أعطى للأفراد ـ فى كل التشريعات ـ من ضمان لحرية الرأى ، والتعبير عنه ، والدعوة إليه ، ولم تستطع أحدث الدساتير ديموقراطية ، أن تضمن للفرد بعض ما يمنحه له الإسلام فى هذا الشأن .

وهذا النمط من التكاليف الجماعية ينفرد به الإسلام عن غيره ، وإنك لن تجد هذه المعانى التى حدثتك عنها فى مثل هذا التكليف القائل : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » و « اعط ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر !! » فأى تضامن جماعى ، أو مسئولية مشتركة يوحى بها مثل هذا التكليف ؟ وزد على هذا أن قيصرا هذا لم يعد له فى الإسلام شىء أكثر مما لغيره من أفراد المسلمين ، بل إن عليه تبعة أعظم من تبعاتهم ، لأنه خادم للأمة صاحبة السيادة عليه ، ويعبر عن هذا عمر بن الخطاب بقوله للأشعرى أمير الكوفة : « يا أبا موسى إنما أنت واحد من الناس غير أن الله جعلك أثقلهم حملا » ثم يقول : « إنه من ولى أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده » .

ونظرا لعظم التكاليف وثقل المسئولية عنها ، فقد قرر الإسلام : أن كل مكلف يجب أن يعطى من الوسائل كل ما يمكنه من القيام بتكاليفه ، وإلا كان هذا التكليف ظلما وتعسفا « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » و « لا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها » فأنت إذا ألقيت شخصا فى اليم وقلت له إياك أن تبتل بالماء ، وأنت لم تعطه وسائل الوقاية من الماء فأنت ظالم متعنت يجب أن تخالف ! ولهذا يقرر الإسلام فى كل نصوصه ، وفى كل مناسبة ، أن كل مكلف يجب أن يكون فى يده وسائل تنفيذ ما كلف به ، وأن التكليف يتوقف ويتعطل ، إذا فقدت أو تعطلت وسائل تنفيذه فالمريض الذى لا يستطيع القيام بعمل ما مما كلف به ؛ والأسير فى يد عدو الإسلام

مكتبتنا العربية

الذى عطل حرياته ، وأصبح لا يملك وسائل تنفيذ تكليفه ، والمجنون الذى لا يعقل أمرا ولا نهيا ، وكل شخص - ذكرا كان أو أنثى - أصبح فى حالة تنعدم فيها لديه وسائل تنفيذ التكاليف . هؤلاء جميعا تتوقف تكاليفهم وتتعطل ، ولاتلحقهم مسئولية حتى يسترد المريض صحته ، وحتى يسترد الأسير حريته ، وحتى يعقل المجنون ، وحتى تذهب الموانع كيفما كانت ، ويصبح الشخص فى حالة يمكنه فيها تأدية واجباته .

وأهم هذه الوسائل التى يجب ضمانها للفرد ليقوم بتكاليفه . إقداره على التمتع بحقوقه الفطرية التى وهبها الله له ، وهى : الحرية الشخصية ، حرية العبادة ، حرية التفكير أو حرية الرأى والتعبير عنه والدعوة إليه ، وتحقيق مساواته بإخوانه الأحرار المتساوين من كل وجه ، فى كل المنح والفرص الاجتماعية ، وعلى الأمة (الدولة) أن تمكنه من كل ذلك حتى يقوم بتكاليفه - على الأقل نحوها - فإذا هى حرمته من التمتع بحقوقه كلها أو بعضها ، فقد أهدرت أهليته ، وأبطلت تكليفه ، وهو حينئذ يصبح غير ملزم بطاعتها وتنفيذ أوامرها ، ولا يحق لها مطالبته بشىء ما دامت هى التى عطلت تكاليفه ، ويتضح من ذلك أن تمكين الأمة (الدولة) الأفراد من التمتع بحرياتهم ، بعيدا عن الطغيان والعدوان . إنما هو أمر فى صالح الدولة نفسها قبل أن يكون من صالح الأفراد ؛ وما دام خالق الدولة هو رب الأفراد وهو واحد ، ثم هم بنو أب واحد وأم واحدة ، وتكاليفهم واحدة ، ونسبتهم إلى الله وإلى الدولة واحدة ، فهم أحرار متساوون من جميع الوجوه ، ليس بينهم فروق ولا امتيازات ، ومن الظلم أن تقيد الدولة حرياتهم ، أو تعطل تكاليفهم ، أو تمنعهم حقوقهم ، أو تقيم بينهم فروقا لم يأذن بها رب الدولة المشرع لها سبحانه «إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وإذا كان الإسلام قد أطلق للإنسان جميع حرياته ، فإنه فى نفس الوقت ، وضع شروطاً يجب على الفرد التزامها عند مباشرته لحرياته ، حتى لاتصطدم الحريات ، ولا يطغى بعض الأحرار على بعض ، وجعل مراعاة هذه الشروط تكليفاً من التكاليف الواجب تنفيذها دون هوادة ، فليستعمل الفرد حرياته غير باغ ولا عاد ، فى حدود العدل والإحسان «لا تظلمون ولا تظلمون» «لاضرر ولاضرار » وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » . .

مكتبتنا العربية

وهكذا أعطاك الإسلام حق التمتع بحرياتك للقيام بتكاليفك ، بشرط ألا تعتدى على حريات الآخرين ، وأباح لك الحصول على حقوقك بشرط ألا تعطل حقاً لأحد ، أو تغتصب حقاً لأحد ، وألزمك أن ترعى فى جميع أعمالك الصالح العام للدين والدولة ، وهذا هو معنى « ابتغاء وجه ربك الأعلى » « وابتغاء مرضاة الله » ومصلحة الجماعة (مصلحة الدين والدولة) تأتى فى المرتبة الأولى من الاعتبار فى نظر الإسلام . ويجب أن تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد عند التعارض ، وعلى الفرد أن يتوخى فى عمله وتمتعه بحرياته مصلحة الجماعة ، وأن يقدمها - بنفسه - على مصلحته الخاصة ، فإذا تعنت وآثر نفسه على الجماعة ، وجب على الجماعة أن تكبح جموحه ، وتؤخر مصلحته عن مصلحتها ، لأنه من المسلم به أن كل صالح للجماعة صالح للفرد ، ومن هذا ترى أن حريات الأفراد لا يقيدها إلا صالح الدين والدولة ، وهو أمر يتفق عليه المسلمون فيما بينهم ، ويقدرونه بالتشاور مع ذوى الرأى منهم ، أو بالشورى بين علمائهم وحكامهم ، والمسلمون عدول فيما بينهم . تأمل قوله عليه السلام : « إن قوما ركبوا فى سفينة . فصار لكل منهم موضع فجاء رجل فنقر موضعه بفأس . فقالوا له : ما تصنع ؟ قال: هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن هم أخذوا على يده نجوا ونجا . وإن هم تركوه هلكوا وهلك » .

وليس من شك فى أن الأمة هى المكلفة برعاية ذلك وتنفيذه . ولهذا يجب أن يكون سلطانها مطلقا وسيادتها على بنيها عامة غير مقيدة ولا محدودة إلا بما قيدها الله به وحده لها .

كذلك نجد الإسلام يقرر قواعد الحكم الصالح ، ومبادىء العدالة المطلقة ، ويضع دستوراً يمشى على هديه الحكام والقضاة والعلماء وأهل الرأى والنظر ، وهذا هو ألزم شىء لتحقيق العدل والسلام فى أمة تنشدهما ، ثم هو مع هذا يترك شكل الحكم ونوع الحكومة لا يقرر فيهما شيئاً ، فهل هى مثلا حكومة ملكية أو جمهورية ؟ لم يعن الإسلام بهذا لأنه من المظاهر المتغيرة بتغير الفكر والبيئة ، فى الأزمنة والأمكنة المختلفة . فتركه للأمة تقدره هى حسب مصلحتها ، وتختار بنفسها شكل الحكم الذى يلائمها ويتفق مع صالحها : غير أنه يوجب أن يكون الحكم

مكتبتنا العربية

- كيفما كان شكله الذى اختارته الأمة - حكما شوريا بين الأمة بوساطة علمائها وذوى الخبرة والرأى فيها ، وبين حكامها تحت رقابة الأمة كلها؛ ولم يشأ أن يعين شكل الشورى . وهل هى مطلقة أم مقيدة بطبقة خاصة لأن شكل الشورى أيضاً متغير ، يتطور بتطور الناس وتغير ظروفهم وثقافاتهم . فتركه أيضاً للأمة ، تعينه حسب مصلحتها ، وبهذا كان التشريع السياسى للإسلام فى أسمى درجات الكمال ، لم يجبر الأمة على أمر يخضع للتغير بتطور الفكر ، ويختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، وكان نظام الإسلام لهذا صالحاً للتطبيق فى كل زمان ومكان ، والإسلام بهذا يقرر لأول مرة فى تاريخ الإنسانية أن الأمة هى صاحبة السلطان الأكبر ، وهى التى تختار شكل الحكم ونوع الحكومة ، وهى بالتالى صاحبة السلطة فى تعيين حكامها ، ومدهم بما يحتاجونه من سلطان لضبط أمورها ، وتصريف أحوالها ، فإذا مال الحاكم أو اعوج قومته بالنصح والارشاد ، فإن ظلم وفجر ألزمته جادة الحق ، فان استكبر وطغى عزلته ، أو تخلصت من شره بما تراه فى مصلحتها ، وفى هذا يقول العضد فى كتابه المواقف : « وللأمة خلع الإمام ، وعزله بسبب يوجبه ، وإن أدى إلى الفتنة احتمل أدنى المضرتين » وعلق على ذلك شارحه السيد الجرجانى بقوله : « مثل أن يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين ، وانتكاس أمور الدين ، كما كان لهم تعيينه وإقامته لانتظامها وإعلائها [1] » ويقول إمام الحرمين : « إن الإمام إذا جار وظهر غشمه ولم يرعو لزاجر عن سوء صنيعه فلأهل الحل والعقد التواطؤ على ردعه ولو بشهر السلاح ونصب الحروب [2] » وهذا الذى قرره العلماء حق مسلم به للأمة فى الإسلام منذ أول أيامه ، وهو الذى سار عليه السلف الصالح حتى النوى بالمسلمين القصد وحكمهم غيرهم ، وحكموا هم بغير ما أنزل الله ، فهذا هو الصديق أبو بكر يقول للناس عندما وجد نفوراً من على وبنى هاشم : « أيها الناس . إنى أستقيلكم بيعتكم . . إن رأيتم أن تقيلونى بيعتكم فذلكم لكم ... » ثم يقول : « إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم »

---

(١) المواقف ج ٨ الإمامة الكبرى .

(٢) شرح المقاصد ج ٢ ص ٢٧٠ .

مكتبتنا العربية

يشير بذلك إلى قوله عليه السلام : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وهذا هو عمر بن الخطاب يقول لطلحة بن عبيد الله عندما لاحظ عمر أن النعمة أبطرت كثيراً من الناس : « وددت أنى فى سفينة ، وأنتم فى سفينة ، تذهب هذه شرقا وهذه غربا ، ولن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن جنف قتلوه ، فقال طلحة : يا أمير المؤمنين . هلا قلت إن تعوج عزلوه ! قال عمر : لا ، ألتمل أنكل لمن بعده ! » وجاء عمر بن عبد العزيز الأموى الذى ورث عرش الخلافة الأموية عن آبائه ، فقرر من جديد للأمة حقها بعد طول اغتصابه منها ، فخطب الناس أول جمعة تأمر على المسلمين فقال : « أيها الناس . إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين . وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى . فاختاروا لأنفسكم » فقال الناس : يا أمير المؤمنين . قد اخترناك ، ورضيناك ، فل أمر المسلمين باليمن والبركة » وهكذا رد عمر بن عبد العزيز أمر المسلمين إليهم ، بعد أن اغتصبه من الأمة سابقوه وورثوه أبناءهم ، وهو بذلك يقرر . أن الحكم هو حق الأمة وحدها لا حق أفراد منها ، وأن حق الأمة لا يورث . لأن الأمة حية قائمة عليه لا تموت حتى تقوم الساعة ، ولعله سأل نفسه . بأى حق ورثه الأمويون حكم الأمة ؟ ومتى تنازلت الأمة مختارة عن شخصيتها وحقوقها ، وجعلت نفسها متاعا يورثه الأمويون أبناءهم ؟ فلما لم يجد جوابا . ولا وثيقة تؤيد وراثته هذه . رد إلى الأمة حقها المغتصب ، وعاد الأمر كما قال الصديق أبو بكر لرجل سأله ، ألم يترك الرسول نصا ولا وصية لأحد ؟ فأجابه : إن النبى صلى الله عليه وسلم . خلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم متفقين لا مختلفين » ونخلص مما تقدم إلى أن الإسلام قرر لأول مرة المبادىء السامية الآتية :

١ — للأمة شخصية معنوية هى مناط التكليف والمسئولية .

٢ — الأمة توجه الحكم وتسيطر على الحاكمين الذين يستمدون منها سلطانهم وقوتهم .

٣ — الأمة سيدة نفسها ، وهى صاحبة السيادة على نفسها وأبنائها جميعاً ولا سيادة عليها لغير الله .

مكتبتنا العربية

المسلمون والتصوير

لحضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس فى الآداب — دبلوم فى الآثار

وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

انتهينا فى المقال الأول من هذا الموضوع عند الكلام على الحديث والتصوير ، وناقشنا رأى الشراح فى حديث : « إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه » ، وحديث « إن الملائكة لا يدخلون بيتا فيه صورة أو كلب » . ونستمر فى مناقشة رأى الشراح فى الأحاديث الأخرى التى تناولت موضوع التصوير ، وهى :

الحديث الثالث : عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال الطبرى فى شرح هذا الحديث : إن المراد هنا ما يعبد من دون الله ، وهو عارف بذلك ، فإنه يكفر . وقال الخطابى : إن عقوبة المصورين إنما عظمت لأن

---

٤ — على الأمة أن ترعى صالح الفرد وتقدره على أداء تكاليفه ، بتمكينه من التمتع بحرياته .

٥ — الحاكم خادم مطاع ، تعطيه الأمة من السلطان ما يتناسب مع التكاليف التى كلفته بها ، وطاعته مشروطة بمدى التزامه للشرع الذى كلف بتنفيذه ، ولا زالت الدساتير البشرية حتى يومنا هذا تتعثر فى طريق الوصول إلى الدرجة الدنيا من سلم هذه المبادىء السامية التى حكمت قرونا طويلة فحققت الحرية والأخوة ، والمساواة ، كما حققت الأمن والعدالة ، والرخاء والسلام .

وإلى العدد القادم نحدثكم عن مركز الحاكم ونسبته إلى الأمة ، والله ولى التوفيق

مكتبتنا العربية

الصور كانت تعبد من دون الله تعالى ، ولأن النظر إليها يفتن ، وبعض النفوس إليها تميل .

وإذن فلا سبيل إلى القول بأن علة التحريم هى مضاهاة خلق الله تعالى ، وإنما هى الخوف فقط من الرجوع إلى الوثنية التى كان العرب قريبى عهد بها .

الحديث الرابع : عن أبى طلحة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه الصورة » ، قال : ثم اشتكى زيد فعدناه (وزيد هو الذى روى عنه طلحة هذا الحديث) ، فإذا على بابه ستر فيه صورة ، فقلت لعبد الله ربيب ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : ألم يخبرنا زيد عن الصورة يوم الأول ؟ ! فقال عبيد الله : ألم تسمعه حين قال : إلا رقما فى ثوب ! .

وتعليق العينى على هذا الحديث وجيه ومقبول وهذا نصه ؛ قال : « وإنما نهى الشارع أولا عن الصور كلها ، وإن كانت رقماً فى ثوب ، لأنهم كانوا حديثى عهد بعبادة الصور ، فنهى عن ذلك جملة ، ثم لما تقرر نهيه ، عندئذ أباح ما كان رقماً فى ثوب » .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ونقول إنا إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أباح الرقم على الثوب حين أمن زيغ العقيدة ونكسة الجاهلية والشرك بالله ، فلا ضرر - فيما يبدو - إذا اتخذنا الصور والتماثيل ، ما دمنا على بينة من ديننا ، وما دامت هذه الصور والتماثيل بعيدة عن فكرة التقديس والعبادة . على أنى أعتمد أن القول بتحريم التصوير دائما ، ولهذا السبب ، معناه الشك فى إخلاص المعتنقين للدين ، وأنه لم يتمكن بعد من نفوسهم وهذا ما لا يرضاه المسلمون ولا يرضى عنه الفقهاء بالطبع .

وتكملة للرد على كلام النووى ، أورد ما ذكره العينى خاصا بشرح حديث : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تصاوير » ، فقد قال إن المقصود بالملائكة ملائكة الوحى مثل جبريل وإسرافيل ، وهؤلاء لا صلة لهم بسائر الناس طبعا . على أن العينى قد رد على امتناع دخول الملائكة البيت الذى فيه كلب لنجاسته ، أن ذلك غير مقبول لأن الخنزير وهو أشد نجاسة . والسنور وهو أكثر أكلا للنجاسات لم يرد بشأنهما امتناع دخول الملائكة لبيت وجدا فيه . ونقول إنه ليس

مكتبتنا العربية

من المعقول أن تدخل الملائكة بيتاً فيه خنزير بينما لا تدخل بيتاً فيه صورة مع الفارق الكبير بين الصورة والخنزير .

ويعجبنى قول ابن حبان الذى أورده ابن حجر العسقلانى فى شرحه على صحيح البخارى وهو « إن هذا الحكم (أى امتناع دخول الملائكة لبيت فيه كلب أوصورة) إنما هو خاص بالنبى عليه الصلاة والسلام » . ولا غرابة فى هـــذا ، فإن للنبى خصوصيات ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فى حاجة إلى كلب يحرس داره أو تمثال يزين جداره . وإذن فالمسألة هى كما قال العينى : خاصة بالنبى وبملائكة الوحى الذين يحملون إليه رسالات ربه .

وذهب بعض العلماء مذهب النووى فى تحريم ما له ظل وما لاظل له ، معتمدين فى ذلك على حديث للنبى عليه الصلاة والسلام روته السيدة عائشة قالت : « قدم النبى من سفر وقد سترت بقرام لى على سهوة لى فيها تماثيل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم هتكه وقال : أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله . قالت : فجعلناه وسادة أو وسادتين » . ثم يستشهد القائلون بالتحريم أيضاً بحديث : « وعد النبى صلى الله عليه وسلم جبريل ، فراث عليه حتى اشتد على النبى صلى الله عليه وسلم ، فخرج النبى فلقيه فشكا إليه ما وجد ، فقال له جبريل إنا لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب » . وفى رواية أخرى أن جبريل خاطب النبى فقال : « أتيتك البارحة فلم يمنعنى أن أكون دخلت إلا أن كان على الباب تماثيل وكان بالبيت قرام ستر فيه تماثيل وكان فى البيت كلب . فمر برأس التمثال الذى فى البيت يقطع فيصير كهيئة الشجرة ، ومر بالكلب فليخرج ، ففعل النبى ذلك » .

وإذن فدليل القائلين بتحريم ما لا ظل له ، أمر النبى بهتك الستر وتقطيعه وعمل وسادتين منه . ونحن فى حاجة إلى جواب من هؤلاء على سؤال هو : إن عمل وسادتين من الستر معناه أن الصورة لا زالت باقية فى بيت النبى كما صرحت بذلك رواية ابن حنبل ، فهل امتنع الملائكة بعد ذلك من دخول البيت ؟ وهل اشترط الملائكة ألا يدخلوا بيتاً فيه صورة إلا إذا كانت ممتهنة ؟ وهل وسادة ينام عليها النبى صلى الله عليه وسلم تعد ممتهنة فى نظر الملائكة ولا تمنعهم من دخول بيته ؟ .

مكتبتنا العربية

تلك أسئلة أعتقد أن الاجابة عليها فى صالح إباحة التصوير ، ولعلها بالتالى تخفف من حدة الفقهاء وتشددهم عند الكلام عن هذا الموضوع .

على أن حديث « جبريل » بحاجة إلى إمعان نظر وإعمال فكر ، ذلك إنى أعتقد أن جبريل عليه السلام إنما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم بكلمات الله وأصول التشريع والديانة ، ولم ينزل ليوحى إليه أن يقطع الستائر وأن يعمل من « الهلاهيل » وسائد ومرافق . ويمكن أن نرد على حديث « جبريل » بحديث آخر رواه البخارى عن أنس أنه قال : « كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : أميطى عنى فإنه لا تزال تصاويره تعرض لى فى صلاتى » .

ويفيدنا هذا الحديث من ناحيتين :

أولا : أنه يرد على حديث هتك الستر الذى تمسك به القائلون بالتحريم ، وعلى رأسهم النووى .

ثانيا : أن النبى قد أقر الستر ولم يقطعه ، وإنما نحاه فقط حتى لا يشغل به فى صلاته على الرغم من وجود تصاوير به .

من ذلك نرى أن شراح الأحاديث قد اختلفوا فى فهمها وشرحها ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى . ولكننا وجدنا من بينهم أمثال ابن حبان الذى يقول : إن امتناع دخول الملائكة لبيت فيه صورة ، إنما هو خاص بالنبى لا بعامة المؤمنين . كذلك رأينا الطبرى يقول : إن المراد بالمصورين من يصورون ما يعبد من دون الله ...

بعد هذا ، يخيل إلينا أنه قد امتنع الدليل المنقول أو المعقول على من يقول بتحريم التصوير ، له ظل أولا ظل له ، امتهن أولم يمتهن ، ثم سواء أكان لحيوان أم غير حيوان .

سبب القول بالتحريم :

قد يرجع سبب قول الفقهاء بتحريم التصوير إلى تأثير الأفكار اليهودية التى

مكتبتنا العربية

اختلطت بالدين الإسلامى عن طريق اليهود الذين تحولوا إلى الإسلام . ولا سيما أن منهم من كان من رجال الحديث أمثال كعب الأحبار ، الذى أخذ عنه ابن عباس ، وكذا وهب بن منبه وغيرهما .

ولا يستطيع باحث أن ينكر تسرب كثير من الاسرائيليات إلى المعتقدات الإسلامية ، فإن القول مثلا بكراهية المحراب المحفور (الغائر أو المجوف) قد يرجع إلى ما ورد فى التوراة خاصا بالمذبح حيث يقول الرب : « وإن صنعت لى مذبحا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة » . كذلك قد يرجع القول بكراهية المنبر فى أول الأمر إلى ما ورد فى التوراة فى نفس الإصحاح حيث يقول الرب :

« ولا تصعد بدرج إلى مذبحى كيلا تنكشف عورتك عليه » .

ويخيل إلى بعد هذا ، أن القائلين بتحريم التصوير من فقهاء المسلمين قد تأثروا — إلى حد ما — بالآراء اليهودية . على أن بعض المستشرقين يتهمون الأمم السامية عامة بخوف متأصل من الصور والتماثيل ، وأنهم ينسبون إليها قوى سحرية . وقال هؤلاء المستشرقون إن مظهر ذلك الخوف هو القول بتحريم التصوير . ومن طريف ما يروى فى باب الاستشهاد للتدليل على صحة ذلك الزعم الذى يذهب إليه المستشرقون ، أن أبا جعفر المنصور حين بنى قصره . وسط مدينته الجديدة « بغداد » ، جعل على قبة القصر فارسا ممسكا رمحا لمعرفة اتجاه الرياح — كما يقول المستشرق توماس آرنولد — ولكن سادت بين الناس خرافة مؤداها أن الفارس إذا اتجه برمحه إلى جهة ما ، فإن شرا منتظرا سيحدث بتلك الجهة . ومن الواضح أن هذا النوع من التفكير الخرافى يجعل الناس يتقبلون فى سهولة قول القائلين بتحريم التصوير .

اليهودية والتصوير :

أما تحريم التصوير فى الديانة الموسوية فإنه يعتمد على ما ورد فى التوراة فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج وهذا نصه : « ثم تكلم الرب بهذه الكلمات قائلا : أنا الرب إلهك الذى أخرجك من مصر ، من أرض العبودية . لا تكن لك

مكتبتنا العربية

آلهة أخرى أمامى . لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولاصورة ما مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن » . . ونقرأ فى موضع آخر من سفر الخروج قول الرب : « لاتصنعوا معى آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب » .

وهذا التحريم الذى نصت عليه الديانة الموسوية فى سفر الخروج من التوراة له ما يبرره إذا حاولنا أن نفهمه فى ضوء الظروف والملابسات التى أحاطت بتلك الديانة وقت ظهورها . فمن المعلوم أن مصر التى عرفها بنو إسرائيل حق المعرفة — كما عرفوا غيرها من البلاد المجاورة التى تعبد الأوثان — كانت حينذاك زاخرة بأرباب تعبد من دون الله ، وكانت تماثيل آلهتها الآدمية والحيوانية العديدة تحتل كل مكان . . وما نكسة بنى إسرائيل ورجوعهم عن الوحدانية السامية إلى عبادة العجل إلا لضعف إيمانهم بالدين الجديد ، وشدة تأثرهم بالأفكار القديمة التى وجدوا عليها آباءهم .

وأذن فمن الضرورى أن تلجأ الديانة الموسوية إلى النص على تحريم التصوير وعمل التماثيل ، حتى لا يفتن الناس بها فتلتهم بالعجل ، وحتى لا تمهد لوسيلة تفسد عقول معتنقيها فى وجود إله واحد لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

أما الإسلام الذى مهدت له الديانة اليهودية والديانة المسيحية بإعداد عقلية الناس لقبول عقيدة سماوية واعتقاد فى وجود إله واحد منزه ، فليس هناك مايدعو فقهاء على الصحيح — إلى القول بتحريم التصوير خوفا من الرجوع إلى الشرك بالله أو امتناعا عن مضاهاة خلق الله سبحانه وتعالى .

وإذا سلمنا أن ذلك المنع كان له ما يبرره عند ظهور الإسلام لقرب عهد الناس بعبادة الأوثان ، فلا ينبغى أن نسلم به اليوم ، ولا أن نظل على القول بالتحريم ، مع ما يرى من شدة الحاجة إلى التصاوير والتماثيل فى حياتنا اليومية وشئوننا الاجتماعية ، والشريعة — كما نؤمن — صالحة لكل زمان ومكان .

مجالات فى الأدب :

سوق السعاة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد كامل عجلان
المدرس بالأزهر

فى مجتمعنا أسواق نافقة ، تعج بالتجار الكبار والصغار ، يمسون ويصبحون ولاهم لهم إلا السعى ، وبين أشداقهم طحن معسول ، وفتات بغيض ، وبين جوانحهم حسائك نماها الحسد ، ورواها الحقد ، وأرضعت عصارات مرة من صديء الوراثة أو إسفاف البيئة ، أو تدنى التربية وانحطاط التقليد .

يمرون بالآمنين بجر الأضالع ، ويندسون بين الأصدقاء ، ويطوفون على الجماعات ويتمسحون بالرؤساء ، ويتعلقون بالأذناب .

لا تكل أقدامهم ، ولا تتراجع خطواتهم المشاءة ، ولا تسحجهم المنسل ، كأنما قدت تقصيهم للعورات ، وتتبعهم للزلات ، من جبل لا تنفد أحجاره ، ولا تنتهى دفقات حممه ، ولا هبات عثيره .

وما رأيت كالسعاة ، يحملون أوزار أهوائهم ، ويمشون بها فى الأسواق ، يصبون فى كل مشرب صاف ما يكدره ، وفى كل منبت تام ما يصوحه وفى كل مجمع سار ما ينغص على آله ، حتى يفرق ما التأم ، ويشتت ما تماسك وترابط وتساند .

نعم ما رأيت كالسعاة ، يضربون بالمعول فى غفلة ، ويغمزون بالإبرة فى صحوة ويدفعون بالمهماز فى ثورة ، فإذا النار موقدة ، وإذا البغضاء تقوم بالناس وتقعد ، وإذا النمام قرير النفس ، يلمس حر النار فيكون برداً على كبده ، وماء ينزلق فوق صخرة فؤاده الكليل ، وضميره البليد ، وطواياه المظلمة ، وحناة التى باض فيها النفان . وتلك الأسواق المتفشية ، وتجارها المتكاثرون ، وسماسرتها الذين لا يهدأون وبضاعتها التى تتنقل على محفات الرواج ، لا نجد للخلاص منها طريقاً ، ولا نلوذ منها بعاصم حتى ليس لها من دون الله كاشفة . .

مكتبتنا العربية

ولو أنصفنا مجتمعنا ، وأردنا لأنفسنا الوقاية من شرها ، لأقمنا الأموال ورصدنا الجهود لمحاربتها ومطاردة المدمنين ، والعاكفين على استثمارها ، والجرى وراء النفع الموقوت الذى لا يدوم ، وإن دام لا يخرج إلا نكداً من الغاية ، وخبثاً فى النهاية من لى بمقاومة الأسواق التى تبث القطيعة ، وتمحق الترابط ، وتربى الشحناء ، وتوهن أسباب الصداقة ، وعرى الأصدقاء ، فإذا المودة ضائعة ، وإذا القطيعة سائدة ، وإذا الحياة جهمة عليها القتام ، لقد حذر القرآن ، وخوفت السنة ، وجاهد السلف ، وضج النثر ، وصرخ الشعر بالويل والثبور على المشائين النمامين .

ومع هذا فالسوق هى هى ، وقد تكاثرت ، مروجوا هذه البضاعة هم هم ، وقد نفشوا وأصبحوا أولى قوة تخطف أبصار الناس ، وتخيل إليهم من سحر نفاقهم أنها على ركانة ، وإن كانت أوهن من نسج العنكبوت ، وخاط الهباء ، وبنى الريح ، وأسس الهشيم المأكول ، وما أزعم أننى على بينة من علاج تلك الأسواق ، غير أنى أضع أمام القارىء زفرات صادقات ، ورميات قاصمات ، قابل بها العقلاء والأدباء والكبراء من يحتطبون على موائد هذه الأسواق .

ولعلنا نجد فيما صرح به القدامى من المجربين ، والمتحفظين والمتوقين علالات وصبابات ، إذا تمززناها وتأملناها واعتبرنا بها ، حالت بيننا وبين التسمم ، وباعدت بيننا وبين العدوى ، فإن السعاية داء دوى ، وخطر لا يأتى على شىء إلا جعله جذاذا ثم هشيما ثم هباء .

* * *

وفى الأولين لنا بصائر ...

لما ولى عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك دمشق ولم يكن فى بنى أمية ألبب منه مع حداثة سنه قال أهل دمشق : هذا غلام شاب ولا علم له بالأمور ، وسيسمع منا ، فقام إليه أحدهم فقال : أصلح الله الأمير ، عندى نصيحة فقال له : يا ليت شعرى . ما هذه النصيحة التى ابتدأتنى بها من غير يد سبقت منى إليك ؟ فقال : جارٌ لى عاصٍ متخلف عن ثغره ، فقال له : ما اتقيت الله ولا أكرمت أميرك ، ولا حفظت جوارك . إن شئت نظرنا فيما تقول ، فإن كنت صادقا لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذبا عاقبناك . وإن شئت أقلناك .

مكتبتنا العربية

قال : أقلنى .

قال : اذهب حيث شئت ، لا صحبك الله .

ثم قال : يا أهل دمشق: أما أعظمتم ما جاء به الفاسق : إن السعاية أحسب منه سجية ، ولولا أنه لا ينبغى للوالى أن يعاقب قبل أن يعاتب ، كان لى فيه رأى ، فلا يأتنى أحد منكم بسعاية على أحد ، فإن الصادق فيها فاسق والكاذب بهات .

* * *

ومن هذه المواجهات القاسية الرادة ما روى عن عمر بن عبد العزيز من أن رجلا سعى برجل عنده فقال : إن شئت نظرنا فى أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من هذه الآية « إن جاءكم فاسق بنبأ . . » وإن كنت صادقا فأنت من هذه الآية « هماز مشاء بنميم » وإن شئت عفونا عنك .

قال : العفو يا أمير المؤمنين .

قال : على ألا تعود .

* * *

ومن خلال العقلاء كره السعاة وما ينبغى لهم إلا أن يقولوا فى وجهه : إن صدقتنا أبغضناك ، وإن كذبتنا عاقبناك ، وإن استقلتنا أقلناك .

ومن أمثلة الرجال قتيبة بن مسلم ، روى عنه أن رجلا اغتاب آخر عنده فقال له قتيبة : « أمسك عليك أيها الرجل ، والله لقد تلبظت بمضغة طالما لفظتها الكرام .

وإنى لأنهى مجالتى هربا من كرائه هذه السوق التى حرمت على صاحبها روائح الجنة من كل سماع ونقال للكذب بما جاء فى كتب المحاضرات الأولى عن السلف من أن رجلا قال للآخر إن (فلانا) لم يزل يذكرك ويقول : الضال ، فقال السامع العاقل المتوقى : يا هذا . والله ما راعيت حق مجالسته حين نقلت إلينا حديثه ولا راعيت حق حين أبلغتنى عن أخى ما أكرهه ، اعلم أن الموت يعمنا والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ؟

مكتبتنا العربية

فى صحبة المكفوفين

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر

هؤلاء قوم حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار ، فحيل بينهم وبين نور الحياة وضياء الكون ، وصاروا سجناء الظلام الدامس ، وآثروا فى الغالب زوايا البيوت ، أو منعطفات المعازل ، فأصبحوا رهناء محبس آخر . . ولو اقتصرت بليتهم على ذلك لاحتملوها راضين أو صابرين ، ولكن أهل الحياة جهلوا رسالتهم ، وهضموا حقوقهم ، فأخروا أولئك المكفوفين ولو كانوا أهل تقديم ، وأهملوا شئونهم ولو كانوا جديرين بالعناية والاهتمام ، وصدوهم عن احتلال أماكنهم العالية فى المجتمع إذا ما توفرت فيهم مؤهلات ذلك الاحتلال المشروع ؛ بل وتطاول السفهاء ولا يزالون يتطاولون ـ على المكفوفين ، فسخروا منهم وتندروا بهم ، واتخذوهم مسلاة وتلهية ؛ ولعل هذا هو أهم الأسباب التى دفعتنا إلى تخصيص ذلك البحث عن المكفوفين ، ولسنا نريد أن تقتصر ثمرته على الفائدة العلمية التى تأتى عن طريق البحث والعرض ؛ بل نرجو أعمق الرجاء أن تكون صحبتنا هذه مع قرائنا للمكفوفين مدعاة إلى أن تتبدل الحال ، فيأخذ المكفوف مكانته الطبيعية فى الحياة ، يتعلم ويتقوم ، ويعمل فيحترم ، ويجاهد فيصل ، ويشارك غيره من المبصرين مشاركة الأنداد .

والكفيف هو الشخص الذى ذهب بصره ، ويقال له أيضاً أعمى ، والعمى كما تحدثنا اللغة هو ذهاب البصر وعدم الرؤية ، ويقال : عمى عليه الأمر أى التبس وتعامى الرجل تظاهر بأنه أعمى ، ورجل عمى القلب أى جاهل ، والأعميان الليل والجمل الهائج ، وقيل : هما السيل والجمل الهائج ؛ والعماء السحاب ، وقيل هو الذى يشبه الدخان ويركب رءوس الجبال ، وفى المثل : ربما أصاب الأعمى رشده .

ويقال للأعمى أيضاً ضرير ، ويقال له أكمه ، وذلك إذا ولد أعمى . والعمش قريب من العمى ، والفرق بينهما أن العمش هو ضعف رؤية العين مع سيلان الدمعة منها ، كأن المرئيات تستتر عنها بستور الدمع .

مكتبتنا العربية

وبلادنا ـ مع أشد الأسف ـ أكثر بلاد الأرض عمياناً ؛ وقد تعاونت على إيجاد هذه الكثرة فى المكفوفين بيننا عدة عوامل ، كل منها غول مخيف ، وشيطان رجيم ، فهناك الفقر الذى ينتج من النظافة ومن العلاج ، فينشأ من وراء ذلك العمى وهناك الجهل الذى يدفع بالجاهل إلى ارتكاب السيئات الكبائر فى صحته وفى عينيه على الأخص فيؤدى ذلك إلى العمى ، وهناك المرض المتمثل فى الرمد الشائع الذائع وهذا الرمد له ضحايا من المكفوفين أكثر من ضحايا سواه ، وهناك القذارة التى ابتليت بها بلادنا ، فلم يصدق فى الحملة عليها فرد ، ولم تتعاون فى محاربتها جماعة ، وهذه القذارة تتطاول متجارئة على البصر ، فتصيبه ثم تقضى عليه ؛ وهناك الغبار الذى يثور فى أغلب الأوقات فيحمل جراثيم العمش والعمى فى عجلة وإسراع : ومن السهل عليك أن تلاحظ عند مراجعة هذه الأسباب مجتمعة أن أغلبها ـ إن لم يكن جميعها ـ تتحمل إصره وتبعته الجماعة والدولة أكثر مما يتحملها الفرد الضعيف وذلك لأنها أسباب عامة طامة : ولا طاقة للفرد بالوقوف فى وجهها ، وإنما ينهض بذلك المجموع ، ومن تلك الملاحظة نستطيع أن ندرك فى سهولة عظم المسئولية التى تتحملها الجماعة فى كثرة المكفوفين ببلادنا العزيزة ! .

وعلى الرغم من أننا أكثر بلدان الأرض عمياناً ، فإنا أشد الناس إهمالا لشئون المكفوفين ، وأكثر الناس تفريطاً فى حقوقهم ، مع أن الواجب أن يكون الأمر بالعكس ، فما دمنا قد كثر فينا المكفوفون كثرة لا مثيل لها فى الأقطار الأخرى ، فقد كان لزاماً علينا أن نخصص جهوداً كبرى لنواجه هذه الكثرة بما ينبغى لها أو يجب من رعاية واهتمام ، ولكن هكذا كان الوضع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ولا زلنا بلاد العجائب والغرائب وإن كثرت منا الدعاوات . .

ولو أنك ألقيت نظرة على صنيع الأمم فى ميداننا هذا لوجدت المكفوفين فى الأمم الناهضة الواثبة أناسا عاملين مؤثرين ، متساوين مع الآخرين فى الحقوق وأغلب الواجبات ، فللمكفوفين هناك إنتاجهم ونشاطهم ، ومدارسهم ومعاهدهم ، وصحافتهم وكتبهم ، وآثارهم الصناعية والفكرية ؛ ولكنهم بيننا كالمنبوذين ، يعيشون على هامش الحياة وفى أبعد زاوية من زوايا المجتمع . وبذلك تضيع عبقريات ، وتختفى كنوز رائعة بإهمال أولئك الناس ! . .

مكتبتنا العربية

وليت أمرنا اقتصر مع إخواننا المكفوفين على النبذ والإهمال ، إذن لخف الأمر وهان : وفى الشر خيار كما يقولون ، ولكن شاعت فينا السخرية بالأعمى ، وألفنا اتخاذ المكفوف موطنا للاستهزاء ، وذلك استخفاف بذىء بالكرامة الإنسانية والحرمة البشرية . وكأنما الساخر من صاحب العاهة ، أو الهازىء بمن نالته آفة ، يريد أن يبدو فى صورة المعترض على الله ، المتغطرس المتكبر على من سواه ، فيكون محطا لنقمة العزيز الجبار ، مستحقا للعنة وسوء القرار .

وطالما شاهدنا ذلك العتل الأثيم الذى يؤنب رجلا مكفوف البصر على خطأ ارتكبه وسمعناه يقول ثائراً وساخراً : « لا لوم عليك فإنك أعمى » . . . وكأنما جمع الرجل فى كلمة « أعمى » هذه كل صفات الإهانة والتحقير ، فنزلت على كاهل الرجل الكفيف صخرة فحطمته ، وكثيراً ما نسمع من لا خلاق لهم يقولون لمثل هذا الكفيف ساخرين : « حقا إن كل ذى عاهة جبار » إلى غير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء ! .

إن هذا أولا سوء أدب مع الخالق والمخلوق ، فلو أراد الله لجعل الساخر مكان المسخور منه ، فذلك إذن سابق القضاء وحكيم القدر ، والسخرية مما سبق فى علم الله ، وجرى بحكمته وهداه محاربة له . ومن يفعل ذلك فقد باء بسخط من الله وعذاب شديد . . . وإن كان المكفوف قد فقد بصره فى حادث أو جهاد أو كسب رزق أو تحصيل علم فذلك شرف له ، ومنزلة عليا تنتظره عند ربه ، ليسعد يوم لقائه برؤية جلاله ، والاقتباس من نوره الذى أشرقت له الظلمات [1] ؛ ولقد روى عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلوات الله عليه عن جبريل عن ربه قال : يا جبريل ، ما ثواب عبدى إذا أخذت كريمتيه (أى عينيه) إلا النظر إلى وجهى ، والجوار فى دارى . . . قال أنس : فلقد رأيت أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يبكون حوله ، يريدون أن تذهب أبصارهم : « وذلك اشتياقا منهم إلى التمتع برؤية ربهم ، وهى نهاية النعيم فى جنات الخلود » . وفى رواية : إذا أخذت كريمتى عبدى فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة :

وحتى لو فقد الكفيف بصره فى معصية لكان مستحقا للرحمة والرثاء ، بدل التطاول والاستهزاء ، فرب معصية أورثت ذلا وافتقاراً خير من طاعة أورثت

[1] ذكر ابن أبى الدنيا عن بعض السلف أن الأعمى يرى ملائكة ربه عند قبض روحه .

مكتبتنا العربية

عزاً واستكباراً ، ورأفتك بالمفرط المكسور عون له على أن ينجبر ويستقيم ، وأما تحريتك منه فتحريض له على العناد والإبعاد فى مهاوى الفساد ؛ ولقد شرب رجل الخمر على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فضربوه حدا وتأديبا ، فقال له بعض الصحابة : أخزاك الله !. فغضب من ذلك وهتف : لا تقولوا هذا ، لا تعينوا عليه !.

وكثيراً ما يكون الكفيف البصر المزدرى فى أعين الناس كريما عند الله ، رفيع المكانة لديه ، قريب المنزلة إليه ، لتفتح قلبه وإن ذهب نور عينيه ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ؛ فها هو ذا الصحابى الجليل عمرو بن أم مكتوم يقبل على الرسول وهو مشغول بتذكير الزعماء الصناديد من قريش [٢] ؛ وهدايتهم إلى الله ، فلا يجد الرسول فرصة عاجلة لينفرد بهذا الكفيف الساعى ، فيمهله قليلا ، فينزل الله سورة فى كتابه ، يعاتب فيها نبيه ، ويقول عز من قائل معرضا وموار يا : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك أن لا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؛ كلا إنها تذكرة » !...

ولا يصف القرآن الكريم ابن مكتوم هنا إلا بوصف « الأعمى » فى صراحة وجهر ، كأنه يريد أن يقول إن هذا الوصف الذى قوبل صاحبه بالإهمال أو الإمهال كان هو نفسه جديراً بأن يقابل بالرحمة والاحتفال ؛ وصلوات الله وسلامه على من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متمما لمكارم الأخلاق ؛ ولذلك كان الرسول إذا رآه بعد ذلك اهتم به وقال له : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ، هل لك حاجة ؟... وجعله خليفة وراءه على المدينة عدة مرات مع أنه كفيف ، لأن العبرة بجمال النفوس وطهارة القلوب وسعة العقول...

ولقد أعجبت بأدب شاب جلس يقرأ علينا قصيدة يصف فيها صاحبها مدينة خربتها غارات الأعداء ، وكان فينا رجل كفيف حساس ، وكان فى وسط القصيدة هذا البيت :

مشى الموت فيها « ضرير » الخطا ينقل فى كل بيت قدم

[٢] من أمثال عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى جهل وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة .

مكتبتنا العربية

فلما وصل الشاب إلى هذا البيت تخطاه ولم يقرأه ، وكنت أعلم بوجوده فيها ، فلما انفردت به سألته عن سبب تخطيه له ، وأنا أريد أن أؤكد ظنا كريما جال بخاطرى عن تصرفه ؛ فقال : لقد لمحت كلمة (ضرير) فى البيت قبل أن أنطق به ، فخشيت أن يجرح إحساس فلان فتخطيته ! . . . فشكرت له صنيعه ، وتمنيت لو أن مثل هذا الشعور الرقيق سرى بين الجميع ! .

على أن ضياع البصر اليوم من الإنسان الغرور ، وبقاءه فى الحياة بين هؤلاء الأحياء بدون عينيه يعتبر منحة لا محنة ، إذ يستريح المرء بهذا من مطالعة كثير من المخازى ، ومشاهدة عديد من المآسى ، فهذا زمان تترامى صوره وحوادثه أقذاء فى عيون الناظرين فتعشيها وتدميها ، ولقد كان الشاعر القديم يتطلع إلى دنياه فلا يرى فيها من أناسها من يستحق التطلع إليه والاعتماد عليه . فيهتف :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلهم ... الله يعلم أنى لم أقل فندا
إنى لأفتح عينى حين أفتحها ... على كثير ، ولكن لا أرى أحدا

فليت شعرى ، كيف لو تأخر الزمن بشاعرنا حتى أدرك زمانا نعيش فيه بأبصارنا ، ونحن نتمنى أن نفقدها لنستريح من خزى ما نرى ونشاهد ؟ ! .

ألا إن سخرية القوى بنقص الضعيف ليست من شيم الرجل الأصيل ، والتذكير بالعورات أو التندر بالعاهات ليس من طبع الرفيع النبيل ، ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول : « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » . والمرء يفقد إنسانيته أول ما يفقد حين يسمح لنفسه الأمارة بالسوء أن تستطيل بالاستهزاء أو الاستخفاف على رجل امتحنه الله وابتلاه — لحكمة يعلمها ولا نعلمها — بعلة مزمنة أو عاهة دائمة ؛ وما كانت مكانات الرجال لتقاس يوما بالأجسام والأشكال ، ولكنها تقاس بالأخلاق والأعمال . . .

على أننا حين تنبسط أمامنا صفحات البحث فى صحبة المكفوفين سنرى أن كف البصر ليس عاهة تقبل الهزء والسخرية ، وليس نقصا يعاب عليه صاحبه ، وليس حائلا يحول بينه وبين مراقى المجد وذرا الرفعة ؛ وسنجد من شواهد التاريخ وسوانح الحوادث ومنطق العقل والتفكير أن المكفوفين كانوا عباقرة فى القديم ، وهم أهل لأن يكونوا عباقرة فى الحديث ، لو استقام أمامهم الطريق ! . . .

مكتبتنا العربية

الاسلام أصل حضارة العالم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

يقولون إن المدنية الحديثة أساسها الحرية والإخاء والمساواة ، وإن هذه الأشياء لم تعرف أول ما عرفت إلا فى عهد الثورة الفرنسية التى قامت فى آخر القرن الثامن عشر ، وإن أعظم أسس تلك الثورة كتاب العقد الاجتماعى الذى ، نشره جان جاك روسو ، والذى أوله (ولد الانسان حرا) .

ولم يدر هؤلاء المغالون الجهلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال من قبل ذلك بما يزيد عن اثنى عشر قرنا (إن الناس سواسية كأسنان المشط ، وأنه ليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى) وذكر ذلك عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بأقوال تكاد تكون أقوال جان ، جاك روسو ، حكاية لها ، حيث نصح أحد عماله بقوله (كيف تستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) .

وبعد ، فلا أظن شمس الحرية أضاءت كما أشعلها الاسلام . إذ أضاءت العالم من مشرقه إلى مغربه كلما انتشرت تعاليمه — أما أوربا صاحبة المدنية الحالية التى أثبتت الأيام أنها مدنية الحجارة والحديد والتشاحن على المادة والعرض وإزهاق النفوس لملء البطون وإشباع نهم الفجور والفسق والفتنة فى السلم ، هذه المدنية لم تعرف اسم الحرية إلا بعد أن احتكت بمدنية الإسلام . وبعد أن أضاء قبس من نوره من العراق والأندلس ومصر والقسطنطينية .

حتى فى بلاد العرب لم تكن الحرية ذات معنى حقيقى قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا أظن خافياً على أحد ما الذى كان يفعله المتنطعون من قريش والمتزمتون فيها حين كانوا يؤذون رسول الله وأصحابه بأشد أنواع الأذى ، ويذيقونهم أمر أصناف التنكيل مع أنهم لم يزاحموهم على عرض ولم ينافسوهم على جاه ولم يطالبوا بسلطة ولا بحكم ، وإنما كانوا يدعون لدينهم بالقول اللين والكلم الطيب وحده إلى نبذ عبادة الأصنام ، والتفكر فى المخلوقات ليعلموا أنها من صنع الله الواحد القهار .

مكتبتنا العربية

ومع ذلك فقد أخذتهم حمية الجاهلية وطوحت برؤوسهم إلى العنت والسخف حتى اضطروا الرسول صلوات الله عليه للهاجرة هو وأصحابه ، واضطروهم إلى أن يشقوا بأسيافهم الطريق إلى الحرية ، حتى أفاضت بنورها وحتى انكفأت أطباق الظلم ، وإذا بالمسلمين يحملون شعلتها المقدسة وفى أولها هذه الحرية ، يدعون إلى الله ويدعون إلى المساواة ، ألى أن تكسرت أمام أسيافهم وتحت أقدام خيولهم ما عهدته ممالك فارس والروم والمغرب وأوربا من نظام الطبقات ، ومن استعباد الناس بعضهم لبعض ، مما كانوا يسمونه نظام الإقطاع ، وحق السيد أو الشريف على عبيده ، وحق الكهنة ورجال الكنائس على عموم الناس .

لم يعرف العالم إلغاء هذه النظم العجيبة قبل الإسلام ، ولو قام إنسان فى أوربا فى القرون الوسطى ، ودعا إلى المساواة بين الفلاح وصاحب الحقل ، أو دعا رجال الكنائس أو المعابد إلى التنازل عما كانوا يدعون من حقوق لما كان له من جزاء أقل من التعذيب والتقتيل والتخريب .

والمسد ضلت المدنية الأوربية طريقها وحادت عن أصلها الأول فى الإسلام وجسموها نظريات فاسدة واتخذوا لها طرقاً لا تمت إلى الحق بسبب ، فكانت النتيجة أن انقلبت الأعراض الزائفة . والصور الباطلة ، نقمة عليهم وإذا هم يطغى بعضهم على بعض يتكالبون على ما يشبع النهم أو يطفىء ظمأ الشهوة ، وما هم ببالغين من ذلك إلا دق الأعناق ، ولا براجعين إلا عن طريق روح الإسلام ـ عند ذلك يتذوقون المساواة الحقة والإخاء الصحيح .

جاء الوحى من عند الله العزيز العليم إلى محمد صلى الله عليه وسلم معلم البشرية الأول ، وكان أول بدئه قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

أول الدعوة وأول الرسالة طالب المولى حبيبه بالعلم ، يا لها من حضارة تبهر العقول وتستهوى الألباب وتشرح الصدور . يطالب جل شأنه بالعلم ، فدين الإسلام إذاً أساسه العلم ووحيه الحق وروحه الحضارة فى أجلى صورها وأبهى معانيها ؟ العلم بأوسع صوره وأدق معانيه ، وإلا فبما نفسر انتقال العرب بعد إسلامهم من عداد الأمم الجاهلة المشردة إلى مصاف الأمم الراقية السائدة ؟ استغفر الله

مكتبتنا العربية

بل إلى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم . وقد اعترف لها الكافة بالزعامة فى ذلك قروناً طويلة كانوا فيها يؤمون عواصمها يأخذون عنها العلم والحكمة وأسرار الصناعات والفنون ، ولا يزال المؤرخون من جميع الملل والنحل يرددون هذه الحقيقة ـ أليس هذا لأن الإسلام يفرض الرقى فرضاً ولا يسمح به سماحا .

تحدث القرآن عن ذلك بمنتهى القوة حيث يقول الله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ويقول : (وقل رب زدنى علماً) ويقول : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ويقول المصطفى صفوة خلقه (خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت) أى ولو خرجت من فم آثم أو كافر . فإن الحكمة تلتقط حيث كانت ولا يؤثر على قدسها شىء

كل هذه الآيات وتلك الأحاديث فرضت على المسلمين العلم ودفعت بهم إلى مباحثه دفعا ، والعلم يؤدى إلى الترقى لا محالة بل هو طريقه الوحيد فى كل أدوار البشر . وأى علم هو ؟ العلم على إطلاقه بكل ما يحتمله لفظه ومعناه وبكل ما يؤدى إليه فى الحياة . فإن الدين الذى يفرض على ذويه النظر فى السموات والأرض والذى يقول إنه يضرب الأمثال للناس وما يعقلها إلا العالمون ، والذى يرفع من شأن أهل العلم بحيث يستشهد بهم فى حقه ، والذى يقول رسوله الأمين (فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد) ويقول (فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة) الدين الذى يفعل هذا يدفع بأهله قهراً إلى طلب العلم ، وطلبه يدفع بهم إلى أطوار من الترقى لا تطوف بخيالهم قبل الدخول فيها .

وإلا فمن ذا الذى كان يتوهم أن العربى الذى يتخيل أن القمر له غلاف اسمه الساجور ، يدخل فيه كل شهر مرة ثم يخرج منه يسيراً يسيراً ليعلل بذلك أطواره المختلفة من هلال إلى بدر . يصبح بعد مائة وخمسين سنة يعرف من أحوال هذا الكوكب ما يعرفه أكبر الفلكيين إذ ذاك .

ومن ذلك الذى كان يتصور أن ذلك العربى الجاهل يصبح بعد تلك المدة القصيرة وبيده ذلك القبس من العلم يعشو إلى نوره العالم من جميع أرجاء الأرض يأخذون عنه ما جعله الله أمينا عليه دون خلقه ـ من ذا الذى يستطيع أن يتخيل

مكتبتنا العربية

هذا لولا أن الإسلام قد أوجب على متبعيه الانقياد لقاموس الترقى إيجابا ، لا أنه قد أباحه لهم تخييرا .

لم يكتف الإسلام بالدعوة إلى العلم فحسب ، ولكنه تغلغل فى نظام الاجتماع ووضع من القواعد ما يعتبر المنار الوهاج لهداية الناس إلى ما يسمو بهم فرادى وجماعات ، وإلى ما يثمر حالهم من حيث معاشهم ومعادهم ، فكان النظام الاقتصادى أبدع من النظم الاقتصادية التى عرفت من قبله والتى ولدت من بعده ، هذا النظام هو نظام توزيع الثروات توزيعاً عادلا مشبعاً بروح المودة والرحمة والاحترام بين الطبقات ، وذلك النظام هو نظام الزكاة وحسبنا لو طبق هذا النظام على وجهه الشرعى الصحيح أن تهرب الأشباح المخيفة التى تطغى على العالم الآن باسم الشيوعية والنازية والفاشية والرأسمالية ، وما إلى ذلك مما يسير فيه العالم متخبطا بين ظمأ الجشع وواجب الرحمة .

ثم كان تنظيمه للأسرة وعلاقة الرجل مع زوجه وأولاده وأقاربه فى حياته وبعد مماته نظام عجيب منشؤه التواصل والتراحل والتعاطف ، وإن برم به الغربيون وغيرهم ممن فى قلوبهم مرض ، وعابوا عليه بعض الشىء . فهم ولا بد راجعون إليه بطبيعتهم مندفعون إليه بغرائزهم ، هذا من ناحية وهناك ناحية أخرى اجتماعية لها دقتها ومكانتها وقد وقف منها الدين الاسلامى موقفاً عظيما يدل على منتهى السمو والعظمة إلا وهو الطلاق وإباحته مع بغضه وتقييده بتلك القيود البالغة منتهى الدقة حيث يقول جل شأنه (فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) ثم بعد ذلك يقول (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) :

أين حضارة الغرب هنا ؟ بل أين مدنيته ؟ ها نحن نراهم يرجعون إلى ديننا فى هذه المسائل كلها . وما ذلك إلا لصلاحيتها واستقامتها وتمشيها مع روح العصر وها هم يقتربون منا كل يوم .

ولو نظرنا قليلا فى تقاليد المجتمع وما يسميه الغربيون بنظام (الإتيكيت) والآداب الاجتماعية ، ونظرنا إلى نظام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لنرى أيهما أقوى دعامة وأرقى مدنية وحضارة .

مكتبتنا العربية

يقول الله تعالى فى آداب دخول البيوت والاستئذان لرجال ربوا على البداوة وعاشوا فى أحضان الطبيعة . يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم ،

ويقول فى آداب الجلوس ، يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، وغير ذلك من الآيات :

بل نظم العلاقة بين الأفراد والعائلة بالنسبة لبعضهم البعض داخل بيوتهم حتى يلزمهم حسن الأدب محافظة على الكرامة فقال (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض)

تعليم إلهى وأدب سماوى وأخلاق قدسية تدل على الحضارة الحقة الكاملة ، حضارة لم تغير معالمها تلك الحضارة الزائفة التى وجدت فى هذا القرن والتى كان منتهاها هذا الدمار الذى نشاهده وتلك الحرب الضروس التى نراها اليوم والتى أطاحت بدول وأذهبت ممالك وثلمت عروشاً كانت تفخر بأنها بلغت الذروة فى الحضارة حتى إن رئيس إحدى هاتيك الدول قد اعترف والتمس منه دام ، بأن الخلاعة والمجون كانا السبب المباشر فى انهيار دولته العظيمة والتى كانت تباهى الأمم كلها بحضارتها وتفخر عليهم بها

إن حضارة الإسلام مبناها النظام الروحى والإخاء الإنسانى الحق ، لذلك بقيت تعاليمه صحيحة لم تغير معالمها الأيام ، ولم تقوض صروحها السنون ، بل إنها تزداد على مر الأيام قوة وتمكناً

وها نحن ننتظر أن يثوب العالم إلى رشده ويرجع إلى عقله فينشد الأمن والسلام فى دين الإسلام ويفتش عن الحضارة فى هذا الدين ليعتنقها الجميع وعند ذاك تنقطع النورات وتهدأ الحروب ويتركز العالم على سياسة واحدة حقة ، وهى سياسة الله العلى القدير . والله الموفق لأقوم طريق .

مكتبتنا العربية

دعوة الاسلام الى المساواة

بقلم الاستاذ الشيخ سيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله أياد بيضاء على المجتمع ما أجلها . وفضائل شماء اختص بها العلى القدير ذلك الذى توافرت فيه أكرم الصفات . فجعلت منه عبقريا فذا . وقائدا موفقا . وداعيا إلى الله بإذنه يثوب إلى هديه الحائر ، ويستضىء بنوره الضال ، ويؤمن بدعوته المنصف . ويخشى هيبته المتمادى . ويتضاءل لعظمته المتكبر . حتى خلق من عرب الجزيرة على تنافرهم . وتباغضهم . وتأصل أسباب الفرقة بينهم . أمة قوية الدعائم . شامخة البناء . تربط بينها أواصر الدين . وتؤلف بين قلوب أبنائها تعاليم الله . وتغرس فى نفوسهم رفيع السجايا . وجميل الخلال التى جعلت من العربى . الجافى الطبع . الغليظ اللفظ . الثائر المندفع . الشره الحاقد . إنسانا مرهف الحس . لين العريكة . مهذب القول . يكتفيه من متاع الحياة مايسد رمقه . ويقيم أوده ويحفظ عليه حياته . بل تسامت به القناعة ونكران الذات إلى أن يؤثر أخاه على نفسه . ويخرج له عن جل ماله . من طارف وتليد . وتلك مساواة إسلامية . يعبر عنها المحدثون بما يشاءون . دان بها السلف وأخلصوا فى تنفيذها حتى أصبحت خلقا لهم . ودستورا نافذا بينهم . يحببه إليهم ما تمتلىء به قلوبهم . من حب لله ورسوله . وإخلاص للدعوة الرشيدة . دعوة الإخاء والتراحم والتواد والتعاطف . ونبذ الفوارق التى تدعو إلى التخاصم والتناحر . والتفاخر بالأحساب . والتباهى بالأنساب . وتناسى ما وقر فى أذهانهم من عصبية جاهلية . جعلتهم ينكرون على الرسول الأمين فى مبدأ الدعوة . مجالسة الفقراء وأحاطته لهم بمزيد من رعايته وتقديره ، وقر رأيهم على أنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بدين يسوى بين الأشراف ذوى الجاه ، وبين الفقراء المنبوذين إذ ذاك ، حينما بصروا عند رسول الله بصهيب ، وخباب ، وبلال ، وغيرهم ممن ليسوا من ذوى العصبية .

مكتبتنا العربية

وأبناء الأسر ، رغبوا إليه أن يبعدهم عن مجلسه . فلما أبى ضنا بهم . وإيثارا لهم ، وقال : (ما أنا بطارد المؤمنين) قالوا اجعل لنا مجلسا ليس لهم أن يحضروه . فإذا فرغنا مما قصدنا إليه هرعوا إليك كما أرادوا ، فقال نعم طمعا فى إيمانهم . وكان ذلك بحضرة عمر رضى الله عنه . ولكن الله آثر القضاء على الفوارق داء المجتمع العياء . على إيمانهم . فنزل قوله جل شأنه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

ثم شدد سبحانه النكير على دعاة التفرقة ، والتقريع لهم بأسلوب لا يدع مجالا للثقة فيهم ، والركون إليهم . والاطمئنان لهم ، ما داموا يتمسكون بهذه الطائفية المرذولة التى تدفعهم إلى أن يقولوا نحن سادات مضر وأشرافها إن أسلمنا تسلم الناس ، وإن وفود العرب تستحى أن ترانا قعودا مع هؤلاء الأعبد ، فقال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) إلى أن يقول : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) .

وبذلك تقرر هذا المبدأ القويم : مبدأ المساواة بصورة عملية قاطعة . سدت كل المنافذ أمام أولئك النفر من عظماء قريش ، الذين أملوا أن يبقى لهم فى ظل هذا الدين نظامهم الموروث عن آبائهم وأجدادهم . وكان من أجلى مظاهره . غطرسة وكبرياء . وعنجهية تدفعهم إلى حب الظلم . والتعلق بالاستبداد . فلما خاب ظنهم . وكذب حدسهم . حاربوا الدين . وخاصموا أتباعه . وأنزلوا بهم أنواعا من القسوة . وصنوفا من الاضطهاد . وألوانا من العذاب . اضطر معه المؤمنون أن يفروا حرصا على دينهم . وصونا لعقيدتهم . ويمموا وجههم شطر المدينة . فلما بلغوها . وجدوا أن الدعوة الجديدة التى تهدف إلى أنه لا فرق بين أبيض . وأسود . وقرشى وغيره إلا بالتقوى وأن المسلمين مهما تباعدت ديارهم . واختلفت ألوانهم . وتباينت ألسنتهم . هم فى الدين أخوة ويسعى بذمتهم أدناهم . وجدوها قد نمت . وأينعت فى مهجرهم . وليس أدل على ذلك مما قابلهم به الأنصار . من حفاوة بالغة . واستقبال عظيم . ورضى سابغ . عبروا عنه بقولهم للرسول صلى الله عليه وسلم

مكتبتنا العربية

مدفوعين بأخوّة صادقة للقادمين عليهم . وحب أكيد لهم (أموالنا بينهم قطائع) حينما قال لهم (إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم) والقرآن الكريم يذكر هذه المعاملة الطيبة فى قوله تعالى [والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون] وقد سادت بينهم جميعا صلات قوية على أسس من التعاون والمودة . فى ظل سلم يصونه ما يتذرعون به من غنى نفس . وإيمان صادق . يحفزهم إلى القضاء على الفتنة فى مهدها . قبل أن يبزغ قرنها . ويندلع لهيبها . وهم أعرف الناس بآثارها لأنهم قد طحنتهم حروب العصبية . ولفحت جباههم نيران العداوة والبغضاء . أيام جاهليتهم . وقد حرص الرسول أشد الحرص على أن تكون الوحدة فى كنف التسامح والمساواة حقيقة واقعة . تنتظم الأنصار والمهاجرين . ومن يجاورهم من اليهود . سيما وقد وضحت لهم محاولة المنافقين الوقيعة بين الأوس والخزرج من المسلمين . وبين الأنصار والمهاجرين . يؤيد هذا ما روى عن جابر بن عبد الله أن رجلا من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار . فانتهزها ابن أبيّ فرصة مواتية . لأن ينفخ فى بوق الفتنة ويثيرها حربا شعواء . تبعث العصبية من جديد إذ قال فى رهط من قومه . قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا وهذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم . وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم . فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند فراغه من غزوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب . فقال يا رسول الله مر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله فقال رسول الله . فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه وإذاً ترعد له أنف كثيرة بيثرب . وقال لمن تدفعه الغيرة إلى أن يدلى دلوه فى الفتنة . دعوها فإنها منتنه .

لذلك كتب كتابا بين الأنصار والمهاجرين وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم . واشترط عليهم . وهذا الكتاب يعتبر بحق وثيقة إسلامية . تفيض تسامحاً لا يعرف العصبية . الظالمة ومساواة باعدت بينهم وبين

مكتبتنا العربية

القبلية الغاشمة . وعدلا لا يصدر إلا عن نفس نقية طاهرة تجردت عن الغرض والهوى . ولم يتحكم فيها مأرب . أو تستخفها شهوة . تدعو إلى نكث العهود . ونقض المواثيق . بدافع من الأثرة وحب الذات . وابتغاء منفعة عاجلة . وانتهاز فرصة مواتية . كما نرى الآن ممن ينعقون بالألفاظ الجوفاء . والعبارات المعسولة التى تنادى بالحرية والنصفة . وإقامة نظام سلمى دائم . يحفظ للأمم الضعيفة كرامتها واستقلالها . ويهيب بالأمم القوية . أن تتبادل معها علاقات الحب والتعاون على قدم الإخلاص والوفاء . ومع ما يتصايحون به ويتسابقون فى سبيله من عقد المحالفات بأسمائها المتنوعة . تحس منهم الأمم خلاف ما يظهرون . إذ يشيع بينهم حقد تغلى مراجله . ونهم لا تخفى مظاهره . وإسفاف فى الخصومة بلغوا به الغاية . وإمعان فى العدوان بدّد الثقة فيهم . والركون إليهم . وتبلبلت الأفكار وتشعبت بينهم الآراء تتبع الأهواء .

أين هذا من قول الرسول فى عهده الذى لم يحد عنه قيد أنملة (إن من اتبعنا من يهود . فإن له النصر والأسوة . غير مظلومين . ولا متناصرين عليهم . وإن سلم المؤمنين واحدة ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم . وللمسلمين دينهم . مواليهم وأنفسهم . إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته . إلى أن يقول . وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة . من حدث أو اشتجار يخاف فساده . فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . وإن يهود الأوس . مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة) وقد واصل الرسول بذل الجهد لمحاربة الفوارق والعنصرية أينما وجدت وكيفما كانت . ولذلك عنى أشد العناية بمحاربة هذه النغمة البغيضة يوم الفتح حين أذن بلال على الكعبة فغضب الحارث بن هشام . وعتاب ابن أسير وقالا هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة فنزل قوله تعالى يظاهر الرسول . ويعينه على المضى فى دعوته . (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له ـ لو أقسم على الله لأبره .

مكتبتنا العربية

بهذه الدعوة الإنسانية القويمة دعا الإسلام ، وقد استجاب لها المسلمون الأوائل ، وأخلصوا فى تنفيذها حتى جمع البلد الواحد بين المسلم والنصرانى واليهودى ، ينعمون فيه جميعاً بحياة مليئة بالهدوء والاستقرار فى جو من الثقة وحسن التفاهم ، وقد سارت تقفو أثره . ولا تنفك عن متابعته فى سرعة انتشاره . حتى أصبحت من متممات العقيدة . يدين بها المسلمون فى الحواضر والأمصار . فى الجزيرة وغيرها من بلدان المشرق والمغرب .

وحسب الباحث المنصف أن يرنو ببصره إلى بلاد الحضارة الآن التى قامت على أنقاض مجد الإسلام بعد أن حارب أهلها تعاليمه . وجعلوا معتنقيه شيعاً وأحزابا . فهان أمرهم ، وضاعت هيبتهم . وأسلموا تراثهم . ورضوا بالمظاهر المصطنعة . مما تخجل له نفس الأبى الحر . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . حسبه أن يلقى نظرة فاحصة ، ليتبين كيف غلبت المادة على الروح ، والحيوانية على الإنسانية ، والأنانية التى دفعت بها العنصرية إلى أن تظهر شيئاً فشيئاً حتى إذا كانت لها الغلبة والسلطان . طمست معالم التسامح والمساواة وغدا التفاضل بين الأجناس شرعة ومنهاجا . ليس من حرج على أحد أن يعمل له . ويجهر بالدعوة اليه ، وها هى ذى بلاد الدنيا الجديدة ، البيض فيها يفرون من الحمر . فرار السليم من الأجرب . يظلمونهم . ويحتقرونهم ، ويقيدون حريتهم ، ويضربون حولهم نطاقا من المهانة والإذلال ، ولا يسمحون لهم بالسكنى فى أحيائهم أو الدنو منها ، وويل لمن تسول له نفسه هذا العمل . سيلقى حتفه . ويهدر دمه . وليس لأحدهم أن يغشى لهم مجتمعاً . أو أن يلج لهم نادياً من نواديهم ، فضلا عن أن تجمع بينهم وشائج المصاهرة . وقد قامت دنياهم وقعدت عند ما اقترنت بيضاء بزنجى . أليس ذلك وغيره أقوى دليل على أن الإسلام دين المساواة الحقة ، والحرية الوارفة . وهو ملاذ الإنسانية . يحميها من العنت والتحكم ، ويدعو إلى العدالة الاجتماعية التى هى دعوة الحاضر ، وهيهات أن يتحقق منها بين مختلف الأمم والشعوب ما تحقق فى الماضى بفضل تعاليم الإسلام . وما سيتحقق فى المستقبل لو رجعوا إلى دستور الله القويم .

صفحة من المجد

لفضيلة الأستاذ محمد خليفة

المدرس بمعهد القاهرة

من ذلك الأسود الداكن الذى منحه الليل جنحه ، ونسج هو من جبينه لصفحات الليالى أجنحة ؟ ولدته الأحداث ، وارتضع من أهوال الليالى فتدفقت الأهوال فى دمه فهو وليد الأحداث وهو رضيع الأهوال وهو الذى يعيش لها ، يحسبه الرائى أنه ليس من طينة هذا البشر ولكنه من طينة أخرى صهرتها عزيمة أمضى من عزائم الجن فكانت ذلك المخلوق الفدائى الذى عرفه تاريخ الإسلام جلداً راسخاً كالطود والأجسام تتساقط حواليه ، والرؤوس تتطاير ، والقلوب تتمزق ، والأشلاء تتناثر والدماء تتفجر ، وهو هو الساخر من الموت البسام لعواصف الردى . لقد ركب البحر المائج وبين جنبيه قلب يموج ويهدر ، وفى رأسه أفكار تصطخب وترعد ، وخواطر ترغى وتزبد ، وفى نفسه آمال تجيش وتثب وليست الذهب أو الغيد أو العيش بين الزهر والكأس : لا : إنها الآمال الكبار ، إنها الفتح والنصر ، لقد عاش فى الصحراء يحمل قلبه من صخرها قوة وصلابة ، ويحمل من اتساعها أملا كاتساعها ، ومن آسادها ـ ائم أسادها ، وقد انطبع صفاء الصحراء فى نفسه فكانت أصفى من الصفاء فى مواطن الصفاء كما كان صورة لروعة الصحراء ورهبة الصحراء فى مواطن الدماء .

وجاءته شرعة الإسلام فرآها شريعة الحق فوهب نفسه ودمه للحق يناضل له ويموت فى سبيله .

إنه طارق بن زياد ، إنه البطولة ، إنه أول فدائى مست أقدامه تراب أوروبا واستهان بالموت فى سبيل تركيز راية الإسلام فوق صخور المضيق تخفق

مكتبتنا العربية

فتنخلع فى خفقاتها قلوب المالكين الذين استعبدوا الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

لقد مخرت السفن فى ذلك البحر الزاخر وفى طليعتها طارق يزخر قلبه بشكول من الآمال وألوان من الأفكار .

تطلع طارق إلى ذلك الصخر الداكن الذى تبدى من بعيد ، فرأى فيه صورة لوجهه ، ورأى فى أخاديده وأغواره صورة لأعماق نفسه .

ورأى فى ثباته وتوطد جوانبه أمام ثورة البحر الطاغية ، وأمواجه العاتية ، صورة لموقفه الذى يجب أن يكون أمام المستقبل الذى يرتقبه ، وما يحمل بين أيامه ولياليه مما يشبه طغيان البحر وعتو الأمواج

وما كادت السفن تقارب الشاطىء حتى وثب إلى الشاطىء ، ليثبت للدنيا أن الحياة وثبات ، وأن الذى يتحسس موطىء قدميه خوفا من أشواك الحياة أو رهبة من أغوارها وأعماقها خليق به أن يتدثر بخمار غانية لا أن يلبس لأمة الحرب ويدرع للأهوال وبين جنبيه قلب العذراء

لقد توائب فى أثره الجند وكلهم كطارق فى سخريته من الموت واستهانته بما تعبئه الأندلس من عدة أو عتاد

وهنا تطلع طارق إلى تلك السفن الرابضة إلى جانب الشاطىء فرأى فيها باب الحياة لأولئك الذين قد يطلبون الحياة إذا عجزوا عن لقاء الموت ، فأشعل النار فيها وهو يبتسم ، والجند فى حيرة من هذا القائد يتساءلون عن السر ، فلا يجدون جوابا غير ألسنة النيران تصاعد إلى السماء ، حتى إذا صارت السفن حطاما تتقاذفه الأمواج ورأى أنه قد خلص جنده من عبودية الجبن الذى قد يكون حين تبدو نواجذ الموت وقف على الصخرة يصرخ فى جنوده ، فتنسيهم صيحاته كل شىء إلا الحق الذى يكافحون له والمجد الذى يجب أن يستشهدوا فى سبيله حتى تقوم صروحه من أشلائهم لقد وقف يقول :

أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد

مكتبتنا العربية

استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ، وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرامة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هـذا الطاغية ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت

ونظر طارق وراء الأفق البعيد فاذا الأندلس تلقى اليه بخيلها ورجلها أمواجا من البشرية تتدفق وأعلاما تسد الأفق تخفق وتضطرب .

ما هذا ؟ إنه لذريق ملك الأندلس يزحف فى جيشه الجرار ليقذف بأولئك الحفاة الى البحر طعاما شهيا للأسماك والحيتان

انه لذريق يسير فى مائه ألف مقاتل يركب مركبه التى لم يحلم بها ملك من قبل ولا من بعد ، يحيط به من حرسه الخاص عشرة آلاف من الرجال الأشداء

انه لذريق أعجبته جنوده فانفجر ضاحكا يسخر من أولئك الجياع الذين جاءوا يطلبون عرشا عز على القياصر طلبه

وزحف طارق لا يريد الميمنة ولا يبغى الميسرة ، ولكنه يريد الخطر يريد القلب وحده فإما أن يناله فيكون النصر وإما أن يهلك قبله فتظل العاصفة جائحة ويكون قد شق الطريق لها إلى القلب لتعصف به وتأتى عليه وفيه لذريق وعندئذ يكون النصر .

ان أسبانيا وما عبأت أسبانيا لن تثنى طارقا أو ترده ، أنه يريد أن يضع قدمه على قمة جبال البرانس ويؤذن فى الوجود : الله أكبر الله أكبر .

ووثب طارق وثبته وانطلق كالرياح بل أسرع من نكب الرياح يزعزع الحراب والقنا ويحصد السيوف والرماح فزاغت أبصار الأسبان وبلغت قلوبهم الحناجر ولووا وجوههم يترقبون مخرجا من لقاء الموت فإذا العاصفة تزلزل الأرض

مكتبتنا العربية

من تحتهم وإذا التكبير والتهليل يفجر رؤوسهم . لا . لا ليس هؤلاء المسلمون من طينة البشر وما من قوة فى الأرض تقف أمام قوة السماء .

إن هؤلاء خلقوا فى مصنع المعجزات السماوية فلا طاقة لأحد بهم .

وأدار الأسبان ظهورهم وأطلقوا للرياح سوقهم .

وأدار لذريق بصره فلم يجد حرسه الخاص الذى يبلغ عدده عدد جيش المسلمين.

ولم يسمع غير أصوات المنايا تقترب منه فقفز من مركبته وفر مع الفارين بل كان أسبق الفارين .

ولكنه ولى وللطعن سورة إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا

فأين لذريق ؟ وأين ضحكات السخرية التى كان يملأ بها شدقيه ؟ وأين نظرات الاذدراء التى صعدها وحدرها فى أولئك المسلمين الذين لفظتهم الصحراء على معقل لذريق الشامخ ؟ إن التاريخ أثر بعد تلك الموقعة فى لذريق فغير أثوابه الملكية وتاجه العظيم على شاطىء النهر ولعلى النهر أبى ألا أن يكون بين قاعه قبر الطاغية .

وسار طارق يمد جناحيه على شرق الأندلس وغربها حتى وافاه سيده موسى ابن نصير فتقدما وزحفا حتى بلغا جبال البرانس ووقف طارق على قمها الشاهقة يحقق حلما من أحلامه الجميلة . وأمنية من أمانيه العذاب .

أنه أطلق صوته فوق هذه الجبال يؤذن فى الوجود : الله أكبر الله أكبر .

وخر ساجداً لله شكرا وحمل الصدى روعة الأذان يجلجل بها فى أوروبا فوضع الفرنسيون أيديهم على صدورهم يتحسسون موضع قلوبهم يخشون أن تكون قد فرت من جنوبهم فلم يحسوا بفرارها .

لقد أذهلهم الرعب عن كل شىء حين رأوا موسى بن نصير وقد وقف على قمة البرانس وأرسل طرفه إلى الشرق البعيد ثم صاح : سآخذ طريق الى الشرق عن

مكتبتنا العربية

طريق شمالى (بحر الروم) البحر الأبيض ولا بد أن أجعل منه بحيرة عربية ، حلم جميل ليته تحقق وقد كان فى قدرة المسلمين الذين أخضعوا الأكاسرة وأذلوا القياصرة أن يجعلوا أوروبا كلها مسلمة ولكن لم يرد الله الخير لشعوبها :

يا شباب الشرق : إن طارقا بنى للإسلام دولة وشاد للمسلمين مجداً فى بلاد الأندلس فهل عجز الشرق أن ينجب مثل طارق

يا شباب الشرق إن مصنع المعجزات الذى صنع طارقا هو كتاب الله وهو حى خالد فهل عجز الشرق أن يصنع فى مصنع المعجزات فى ألف طارق :

يا شباب الشرق لقد داس طارق وجند طارق بأرجلهم الذهب وما هو أغلى من الذهب فلم يشغلهم بريق المال ولم يذهل المال والجمال رجل الصحراء عن رسالته التى حملها وجاء من أجلها وهى الجهاد فى سبيل الله حتى يتم الله نوره .

يا شباب الشرق : إن المغاربة الذين فتحوا بالأمس الأندلس وروعوا فرنسا هيض جناح أحفادهم اليوم فتحكم فى الأحفاد عبيد الأجداد فهل يعيد التاريخ نفسه فيقوض حفات الصحراء بأيمانهم وأخلاقهم عروش الجبارين :

يا شباب مصر : أنظروا إلى أولئك الحفاة الجياع من جند طارق وقد عزت نفوسهم فى ميدان الجهاد فلم تعزهم الدنيا ولا زخارف الدنيا وهى بين أيديهم وتحت أرجلهم ثم انظروا إلينا اليوم ونحن متخمون وتأبى نفوسنا الضعيفة إلا أن نقدم حياة جنودنا ثمناً رخيصاً لقصور نبتنيها أو ضيعة نملكها فنهدم مجد أمة لنترك للأولاد والأحفاد ثروة ينعمون فى ظلالها :

أيها الشباب :

لا تكونوا عالة على التاريخ ولا تعيشوا على موائد الماضى بين ألوان الذكرى بل شيدوا لكم حاضراً تذكركم به الأجيال المقبلة واطلبوا الموت توهب لكم الحياة :

مكتبتنا العربية

لمحات فى النظم التعبدية :

الرهبانية والديرية والتصوف

لحضرة الأستاذ عبد المنعم الشنيخ

مدرس بالأزهر

تعشق النفس دواماً ، أن تحيا مع هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم للخالق ، وحبسوها على طاعته ، ابتغاء مرضاته ، وتقرباً لذاته العلية ، وطمعا فى فيض نوره الذى يهدى الأرواح الحائرة ، وسط حياة مفعمة بالظلمة والآثام . . . أحببت أن أحيا مع هؤلاء ساعات من زمان عمرى ، فإلى قراء هذه المجلة أهدى هذه الساعات !

سأعرض فى بحثى هذا ، للرهبانية والديرية والتصوف ، مع عقد المقارنة بينهما ، كلما لاح لى وجه ملائم لهذه المقارنة . اشتقت كلمة « الرهبانية أو الديرية monasteism » من كلمة يونانية ، معناها الوحدة والانفراد ، ومن هذه الكلمة ، تولدت جميع المشتقات ، التى تعطى هذا المعنى . فكلمة « monk » معناها الرجل الراهب ، أو الرجل الديرى ، وكلمة « monastery » معناها الدير ، وهو المكان الذى تنتظم فيه جماعة العباد التى آثرت هذا النوع من الحياة . وهذه العزلة ، ليست فى عرف جميع قديسى هذه الحياة الانفرادية ، الانقطاع الكلى المطلق ، عن الحياة النابضة المتطورة فى الخارج ، وتجشيم النفس ما فوق طاقتها من المتاعب والمصاعب . وإلى هذا الانقطاع الكلى المطلق ، وإذلال النفس ، وحرمانها أنعم الله ، ومتع الحياة ، أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله « لا رهبانية فى الاسلام » ، ويحسن أن نثبت فى مستهل هذا البحث ، أنه بالرغم من أن الرهبانية والديرية ، ليستا من أنظمة المسيحية الخاصة ، فإنه لم يتح لهما من النماء والتطور قدر ما أتيح لهما فى ظل المسيحية . أما عن أصل اشتقاق « صوفى وصوفية ومتصوف ومتصوفة وتصوف » فقد ورد فى ذلك كلام كثير ، ويعنينا من كل ما قيل ، ما رسخ لدى العلماء اليوم ، وهو أن الاسم مشتق من الصوف ، وأن القوم اختصوا بلبسه ، تميزا لأنفسهم

مكتبتنا العربية

من الطبقات التى درجت على البذخ والنعمست فى الترف . ونظرة لكلا الاشتقاقين فى الرهبانية والديرية والتصوف ، ترينا أن القوم فى كل . نظروا الى الحياة نظرة زهد ، وعزفوا عن مباهجها وملاذها ، وذلك يتفق مع ما نعرف من أن هذه الأنظمة التعبدية ، قد نشأت كلها عن الزهد .

وسأتناول الآن ماهية كل من هذه الأنظمة ، لنقف على ما بينها من أوجه اشتراك وأوجه افتراق : عرفت الوثنية الرهبانية والديرية ، ولكن المسيحية لم تعرفها قبل القرن الثالث الميلادى ، ولم تعم هذه الحياة الشرق وتنتشر فيه قبل القرن الرابع ، كما أن القرن الخامس شهدها متناثرة فى غربى أوربا ، ولم تعم وتنتشر هناك إلا فى القرن السادس . ولقد نبتت أولى بذور هذه الحياة فى الشرق ، وفى ذلك برهان قوى على التأثير الشرقى فى المسيحية . والأصل فى الرهبانية والديرية ، هو الانفراد والابتعاد عن المجتمع الغارق فى المنكرات ، السادر فى الموبقات والفرار بعيداً عن صليل المادة المسكر ، هذا مع التقشف فى العيش ، والاكتفاء بما يقيم الأود ، بالقدر الذى يهيىء للعبادة والتأمل فقط . وهناك فرق بين الانعزالية الرهبانية والانعزالية الديرية ، فالأولى هى حياة فرد من الأفراد ، ضاق ذرعاً بالحياة المضلة من حوله ، فراح يلتمس سعادة نفسه وهدوءها فى رحاب الله ، بالابتعاد عن الخلائق والتفرد للخالق .

أما الانعزالية الديرية ، فهى عيشة اجتماعية فى دير من الأديرة ، خارج نطاق الحياة البشرية العامة ، وهى عيشة منظمة كلية ، ليس فيها قسوة الرهبانيه وشدتها إذ هى حياة تعاونية ، فى ظلال التعبد والتقرب من الله . هذه هى الرهبانية ، وتلك هى الديرية ، أما التصوف فتبدو ماهيته من التعاريف الآتية :

قال رويم بن أحمد البغدادى ، التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل وترك الغرض والاختيار ، وقال الكرخى : (التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق) وقال الجنيد : (أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة) وقال ابن خلدون فى مقدمته : (الصوفية

مكتبتنا العربية

من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة . وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة . وقد كان ذلك فاشيا فى الصحابة والسلف . ولما عم الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية أو المتصوفة) يتضح لنا من العرض السالف لماهية هذه النظم التعبدية ، أن بينها أوجه العلاقة الآتية:

١ ـــ أنها جميعا تتفق فى هجر المجتمع الآثم المليء بالشرور والآثام ، إلى مكان منعزل تمارس فيه طقوسها الدينية خالصة لوجه الله وحده ، وسنرى فيما بعد أن قيام هذه النظم كان رداً على موجات الفساد التى اجتاحت المجتمعات حينذاك .

٢ ـــ هذه النظم جميعا يطبعها التقشف والزهد فى الحياة ، وهو طابع يضاد ما فى حياة المجتمعات حينذاك من إغراق فى البذخ والترف وإقبال على الدنيا ونسيان للخالق . ولذلك فكثير ممن انضووا تحت لواء هذه النظم آثروها لأنهم فشلوا فى مواجهة أحداث الحياة .

٣ ـــ أن الإسلام قد رفض الرهبانية كنظام تعبدى من أنظمته ، وذلك لأن الإسلام دين اجتماعى يكره الانحلال الاجتماعى ، ويكرم النفس البشرية فلا يحملها فوق طاقتها ، ونحن إذا علمنا أن من بين جماعة الرهبان من يعيش فى أعماق الصحراء ، ومنهم من يعيش فى صومعات تتصل بالخارج بواسطة فتحات صغيرة ، ومنهم من يعيش فوق الأشجار ، ومنهم من يحمل نفسه السلاسل والأغلال ويترك لحيته وشعره يتدلى فى غير نظام ، ومنهم من يقضى حياته تضوراً . إذا علمنا ذلك أدركنا حكمة الإسلام فى قول النبى (لا رهبانية فى الإسلام) ونحن نعرف المثل القائل : (إن إنكار الجمال هو فى الحقيقه نغمة ضدية لمن يتشدقون بالقداسة) فنرى هؤلاء القوم وقد أعرضوا عن النظافة والراحة واللذة وفضلوا الفقر والذل الحيوى ، وكل هذا مما يأباه ديننا الحنيف ، وهناك وجه شبه بين الديرية والتصوف ، فللعباد فى الأولى ديرهم ولهم فى الثانية خلوتهم وتكيتهم .

مكتبتنا العربية

وسأتناول الآن الظروف التى قامت فيها هذه الأنظمة ، وسنرى أنها جميعاً نشأت فى ظروف تكاد تكون متشابهة : لقد ثارت النفوس ضد الامبراطورية الرومانية التى لاحت وثنيتها محتملة الوقوع فى القرن الرابع الميلادى ، والواقع أن الخلاعة والفجور والإفراط فى المجون ، قد أثر فى الأرواح الحساسة الشاعرة . فراحت تلتمس فى العزلة منجاة لها من خداع الحياة البراق ، ولتصل عن طريق هذه العزلة إلى راحة العقل والقلب ، فنبذ هؤلاء القوم أملاكهم وأحبتهم وأصدقاءهم ، وجنحوا إلى حياة العزلة ، ولذا كان هذا النوع من الحياة عنواناً للتضحية وشرف الفقر ، كما كان من أسباب قيام هذه الحياة أيضاً ، تلك العبارات التى حث بها المسيح أتباعه على الانقطاع للعبادة ، وترك مظاهر الحياة الخداعة ، وكان لما لجأ اليه أباطرة الدولة الرومانية من الاضطهادات أثر فى نشوء هذه الحياة ، ويكفى للتدليل على ذلك ، تمشى حركة الرهبانية مع حوادث الاضطهاد المعروفة فى مصر ، منذ عهد الأمبراطور (دسيوس Decius) إلى عهد الأمبراطور (دقلديانوس) [٢٤٩ — ٣٠٥ م] ولقد وجدت بالأسكندرية فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين مدرسة ، كانت تعلم نوعا من إنكار الذات والتضحية ، وكان لوجود هذه المدرسة أثر فى نشوء الرهبانية .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

هذا عن الرهبانية والديرية . أما عن التصوف ، فقد نشأ فى ظروف تشابه هذه الظروف : نشأ التصوف عن الزهد كما أشرنا سلفاً ، ولقد نما هذا الزهد إثر الحروب الأهلية ، ومقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه ، إذ أثر ذلك تأثيراً بالغاً فى قلوب المتدينين ، كما كان للتطاحن الحزبى ، وفوضى الفرق فى عهد بنى أمية ، أثره فى فزع القلوب الحساسة الشاعرة التى راحت تترقب الخلاص من هذه الحياة فى ظهور (المهدى) وحملت فكرة ظهور المهدى كثيرين على اعتزال الحياة ريثما يعود اليها صفاؤها وطهارتها ؛ أثرت هذه العوامل ، كما أثرت نظائرها فى زهاد النصارى من قبل ، فاتجهوا إلى القوة الالهية ، وأيقنوا أن البذخ والترف بدعة ، وتحققوا أن الدائم الذى لا يفنى ، والحقيقة التى لا تبلى ، هى الاتصال بالله .

[يتبع]

مكتبتنا العربية

الواقعية الحديثة
والادب المصرى المعاصر

للأستاذ أحمد عباس صالح

المذهب الواقعى (Realism) عرف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وظل سائداً حتى نشوب الحرب العالمية الأولى . وقد جاء خلفاً للمذهب الطبيعى (Waturalism) الذى دعا له الكاتب الفرنسى « أميل زولا »[١] وأصحابه . وقد بشر بهذا المذهب (فلوبير)[٢] ثم (موباسان)[٣] فى فرنسا ، ولم يلبث أن شاع فى جميع الأقطار وأصبح الطابع الغالب على الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

على أنه بعد الحرب العالمية الأولى ، وهى النتيجة الطبيعية لانتشار المصانع الضخمة وتعميم (الآلة) وسيطرتها على المجتمعات الغربية ، ظهر كتاب ما زالوا حتى الآن مسيطرين على الأدب الغربى ينفرون من (الآلة) ويرجعون اليها سبب التدهور الخلقى والاجتماعى الذى ساد القارة الأوروبية ، متوهمين أن الانتاج الجماعى وتقسيم العمل قتل روح الاستقلال لدى الإنسان وجعله تابعاً للآلة . وأنه نتيجة لهذا صار المجتمع ماديا آليا تحتضر فيه القيم الروحية التى ظلت سائدة مذ كان العمل اليدوى والنظام الاقطاعى مسيطرين على العالم .

والواقع أن النظر السطحى إلى ما أدى اليه الانتاج بالجملة من نتائج يجعلنا

---

(١) أميل زولا - كاتب فرنسى ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكان يرى أن الانسان مدفوع إلى تصرفاته بغرائزه الثابتة والمتأصلة فيه ولذلك فقد سمى مذهبه الفنى (بالطبيعة) نسبة إلى الغرائز الطبيعية فى الانسان .

(٢) جوستاف فلوبير - من أتباع أميل زولا وعاش بعده بقليل ، صاحب القصة الشهيرة « مدام بوفارى » وفيها أخذ عن الواقع مباشرة ويعتبر أول من بشر بالمدرسة الواقعية .

(٣) جردى موباسان - من أتباع أميل زولا وعاش بعده فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقد اتجه إلى تثبيت أركان المذهب الواقعى .

مكتبتنا العربية

تنحى باللوم على التقدم الآلى الذى وصلنا اليه ؛ فإن البطالة والمنافسة والاحتكار واختفاء المحلات التجارية الصغيرة والكوارث التى حدثت قبل وخلال أزمة سنة ١٩٣٠ زعزعت الفكر الأوروبى وأطلقت أقلام كتابهم تضرب خبط عشواء فى مهاجمة ما توهموه عدوهم الألد - وهو الانتاج الجماعى .

على أن الإنتاج الوفير لا يمكن أن يكون ضاراً بالمجتمع الإنسانى ، ذلك أن المحاولات التاريخية التى بذلها الإنسان لتوفير حاجياته منذ العصر الحجرى حتى الآن لم تتوقف ؛ كما أن حاجاتنا الأولية لم تتحقق بعد . ولقد أرجع الاقتصاديون النابهون هذه الأخطاء إلى النظام الذى يرتب العلاقات بين المنتجين وبعضهم ثم بينهم وبين المستهلكين . ولكن هذه النظرة العلمية ، والحلول الاقتصادية التى قدمت حينذاك ، لم تصادف مستقراً فى نفوس الكتاب والفنانين الذين روعتهم تلك الكوارث التى حدثت من بداية القرن حتى الأزمة الكبرى فجعلوا يصبون جام غضبهم وثورتهم على ما يسمى بواقع الحياة إذ كان شائعا أن واقع الحياة هو التجرد من كل العواطف والأخلاق النبيلة واعتناق فكرة البقاء للأصلح ، وكان رجل الأعمال شخصاً صلباً باردا كالخزانة التى يضع فيها أمواله !

وتقدم هذه الحملة من الكتاب ذوى الشهرة (د . ش . لورانس)[١] و (ت . س . اليوت)[٢] و (ألدوس هكسلى)[٣] وغيرهم ، وقد أطلق النقاد عليهم اسم كتاب الأزمة والانحلال ، ذلك أنهم لم يحاولوا أن يبثوا الأمل فى النفوس أو أن يدعوا إلى بناء اجتماعى جديد ، بل كانوا كالغربان ينعبون على أطلال حضارة ميتة .

---

(١) د . ش لورانس - كاتب انجليزى توفى قبل الحرب العالمية الثانية يرجع اختلال المجتمع إلى عدم التوازن بين الرجل المتحضر والمرأة .

(٢) ت . س . اليوت - شاعر وكاتب انجليزى معاصر يرجع اختلال المجتمع إلى سيطرة «الآلة» والانتاج بالجملة وينادى بنبذها .

(٣) ألدوس هكسلى - كاتب انجليزى معاصر ينحدر من أسرة عريقة فى العلم يرى أن التقدم العلمى سيودى بمستقبل الانسان ويحيله فى النهاية إلى شىء جامد متشابه كالسلع التى ينتجها .

مكتبتنا العربية

هؤلاء الكتاب استحدثوا مذهباً جديداً فى الفن بل مذاهب اتخذت جميعاً — هروبا من الواقع — منطقة اللاوعى فى الإنسان وعكفت على الجانب النفسى فيه بعد أن انتشر مذهب « فرويد » واشتهر التحليل النفسى وعرف (اللاوعى) .

وفى الاستطاعة القول بأن معظم المدارس الفنية الحديثة تصدر عن هذ النبع ، ففى انجلترا عرفت « فرجينيا وولف » و « جيمس جويس » وفى أمريكا « ميلر » و « جنجداى » وغيرهما وأصبح من المألوف ظهور أدب غير مفهوم بحجة أنه يبحث فى أعماق النفس البشرية وبعث المذهب الرمزى الذى انتهجه « بو » [١] الأمريكى وورثة « بودلير » [٢] وآل إلى « بول فاليرى » [٣] الفرنسى .

وأصبح مألوفاً أن هذا الأدب يعيش فى عزلة عن معترك الحياة اليومية وتقلبات المجتمع وآلامه . ومن هنا ابتدأ النزاع القديم بين التزام الفنان واعتزاله يعود إلى الميدان . أيجب على الفنان أن يشارك فى نقد مجتمعه ؟ أيجب أن يشير إلى الاتجاهات السليمة ويحبذها ؟ أيجب أن ينقد الأوضاع الخاطئة ؟ أم يجب أن يعتزل ويعكف على فنه يجدده ويحسنه ؟ وأعيد من جديد النقاش حول مسألة الفن من أجل الفن أو الفن من أجل المجتمع ، وانقسم الفنانون - تبعاً لهذا - قسمين . الأول منهما يرى الاعتزال والآخر يرى الخوض فى المعارك السياسية والاجتماعية ومناقشة واقع الحياة .

ومهما يكن من أمر هذين الفريقين فمن المرجح أن عصرنا هذا عصر قلق يقف عند مفترق الطرق . وأصبح من المعتقد أن النظام القائم فى أوروبا لا يفى

---

(١) أوجار آلان بو - كاتب أمريكى عاش فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية والتاسع عشر وكان ينحو منحى رمزيا فى كتاباته .

(٢) شارل بودلير - شاعر فرنسى عاش فى القرن التاسع عشر وكان فاجراً تدور كتاباته حول العربدة الحبشية ونحى فى كتاباته منحى رمزيا .

(٣) بول فاليرى - كاتب فرنسى توفى أثناء الحرب العالمية الأخيرة بفرنسا وكان يعتمد فى تأدية الفكرة على الموسيقى اللفظية .

بأغراض الإنسان فى الاستقرار والهدوء الروحى ، ولذلك فقد حاول كل من تصدى لنقده أن يقدم حلولا . فنادى (لورانس) بالرجوع إلى الفطرة وحياة أشبه بحياة القبائل فى أفريقيا واستراليا ولكنه لم يلبث أن تراجع عن هذه الدعوة فى أخريات أيامه ولم يقدم جديداً ، أما (اليوت) فنادى بمذهب يوشك أن يكون كالتصوف حيث يطبع المجتمع كله بطابع كنسى مترهب . إذ أصبح فى اعتقاده أن الاستقرار فى ظل وسائل المعيشة العصرية خرافة .

على أن الاتجاه لدى بعض كتاب الغرب لم يكن قاصراً على انجلترا أو فرنسا أو أمريكا ، بل ظهر فلاسفة فى العشرين سنة الماضية فى ألمانيا (كشبنجلر) يبشرون أو ينذرون بانهيار الحضارة الغربية ووشوك قيام حضارة عظيمة لدى الشرق لا لشىء إلا لأن القيم الروحية والأخلاقية والفطرية لم تزل باقية فى بلدان هذا الشرق . وفى نفس الوقت يقول إنه يجب على المجتمع (الأبيض) أن يهىء نفسه لفاضلة هذا المارد (الملون) الذى ينبعث من الشرق ، والخطوة الأولى فى هذا السبيل هى الكراهية . وعلى هذه الفلسفة المقيتة يقع جزء كبير من التبعة فى سقوط ألمانيا وإيطاليا السقطة المعروفة .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفى ظل هذه الأفكار المتشائمة والمريضة قام فريق من الكتاب الجدد ينفضون عنهم آثار المتاعب والكوارث التى صبغت نصف القرن ليؤسسوا لأنفسهم مذهباً جديدا على المذهب القديم المعروف بالمذهب الواقعى ، هذا هو الواقعية الحديثة .

ولقد كانت — حقا — أشبه بإفاقة الجريح بعد المعركة ؛ يجب أن يعاد النظر من جديد إلى الحياة بمنظار موضوعى سليم ، ما هى الأخطاء التى ارتكبت وأدت إلى هذه الحروب المدمرة وأشاعت القلق والخوف فى النفوس ؟

وعلى ذلك فكان أول أساس تتخذه هذه المدرسة هو الإيمان بالإنسانية أو بوجود العنصر الصالح فى الإنسان لمواصلة الحياة وبناء حضارة أعظم ، ومن هنا يظهر الجانب الإشراقى لهذا التفكير . وعكف أعلام هذه المدرسة — التى يمثلها

مكتبتنا العربية

الآن « سيلونى [١] » الإيطالى و « ريتشارد رايت [٢] » الأمريكى وغيرهما — على دراسة الحياة كما هى وأصبح الفن لا يتخذ مداره حول الخرافة أو المبالغة بل الحقيقة البسيطة التى تحدث كل يوم فى النفوس والبيوت والمصانع ودراستها دراسة دقيقة .

وحيث أصبح مجتمعنا — فى جميع بقاع الأرض — يقوم على العلم وحده ، وحيث اتخذ العلم صفته المحتومة القاهرة وهى الحقيقة الموضوعية المبينة على أساس تجريبي ، صار المذهب الواقعى أيضا لا يعنى إلا بالتجربة . ومن هنا يفترق تماما عن سائر المذاهب الفنية الأخرى حيث يكون المجال كبيرا للتخيل والتوليف ، ولم تعد للفن صفته الرخيصة وهى التسلية أو المتعة ، بل أصبح ركنا ضخما للمشاركة فى بناء الحضارة الاقتصادية والاجتماعية والروحية بعد أن شاع أنه لا يمكن التفرقة بين هذه العناصر الثلاثة .

وإذ كان مجال هذا الفن هو دراسة (المجتمع) كما هو فى الواقع فقد اتخذ مادته من العموم الذين يمثلون غالبية المجتمع وجعل يستكشف فيهم مواطن القوة والضعف . ولكن المذهب الواقعى أيضاً لا يقتصر فى تناوله الفنى على فئة دون أخرى فى المجتمع بل على كل الفئات باعتبارها جميعاً مكونة له .

وعلى ذلك فقد أعلن فى صراحة أنه لا يفهم معنى لهذا الفن الذى لا ينتسب إلى واقع الحياة بحجة أنه يؤدى لوجه الفن وحده . وتراجعت تلك الشرذمة التى ظهرت من خلعاء فرنسا فى نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن واحتضنها أوسكار وايلد الإنجليزى وظلت ممتدة حتى وقتنا هذا ، وأصبح من المعترف به — على الرغم من صرخات واهنة تطلق هنا وهناك — أن الفن لا بد من اتصاله بواقع الحياة ومشاكلها .

ولكن هذا المذهب وجد من يحاربه فى أوربا وأمريكا بل وفى كل مكان

---

[١] ايناز يو سيلونى - كاتب إيطالى معاصر فر من إيطاليا أيام حكم موسوليني وظل يتنقل بين فرنسا وسويسرا وغيرها من دول أوروبا إلى أن رجع أخيرا إلى إيطاليا .

[٢] ريتشارد رايت - كاتب أمريكى زنجى معاصر يأخذ من الواقع مباشرة ويعالج مشكلة الزنوج فى أمريكا فى كتاباته .

مكتبتنا العربية

الآن ، إذ ظهر فى فرنسا اتجاه جديد يمثله (جان بول سارتر[١]) (وألبيركاموا[٢] وغيرهما يروجون للعودة إلى رومانتيكية جديدة تختلف عن الرومانتيكية القديمة بأنها بشعة سوداء متشائمة ، وهب سارتر يدافع عن الأسلوب الرومانتى حيث العاطفة العنيفة والمبالغة هما اساس العمل الفنى . ومع أنه إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية كان الدفاع عن الرومانتيكية يبدو شيئاً مضحكا باعثاً على السخرية فقد وجد سارتر فى ضجيج القلق النفسى الذى يحدث فى فرنسا الآن مجالا كبيراً لصراخه الرومانتى.

وإذا نظرنا إلى أدبنا المصرى المعاصر على ضوء هذا الكلام لوجدنا أننا لم ننخرط فى سلك مدرسة أدبية بعينها من هذه المدارس وإن كان الطابع الغالب علينا هو رومانتياكية هادئة كما يبدو فى أدب توفيق الحكيم القديم وبعض أعمال طه حسين والمازنى . ولكن حجتنا فى ذلك هى أننا فى بداية تشكيل فنى جديد نقيمه على تراثنا العربى الضخم ومتكئين على ما وصل إليه الغرب ، ونتيجة لهذا ظهر أدب القصة والمسرحية عندنا وأخذ الشعر العربى يتشكل أشكالا جديدة ولم يصبح التزام قافية واحدة فى القصيدة قدراً محتوما على الشاعر .

وفى ظل هذه المدرسة الواقعية يستطيع الأدب المصرى المعاصر أن يكون وثيق الصلة بمجتمعة مبتعداً عن الرخاوة الشائعة فى مجلاتنا المصورة وغير المصورة وتلك المخازى التى توضع لجذب جمهور خال من الثقافة والتقدير السليم . وليس شك أن القصص التى تنشر فى هذه المجلات والصحف لا تمت إلى الفن الحقيق بصلة . ولا يشك أحد أيضاً فى أن دراسة المذاهب الأدبية المختلفة من خلال النصوص ذاتها عمل ضرورى واجب تقوم عليه النهضة الأدبية الحالية سواء فى الجامعة الأزهرية أو الجامعات الأخرى .

---

[١] جان بول سارتى - كاتب فرنسى معاصر ومؤسس المذهب الوجودى الشائع فى فرنسا الآن

[٢] البير كاموا - كاتب فرنسى معاصر من الجزائر ينحى منحى المذهب الوجودى فى آثاره الفنية

مكتبتنا العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة التى ألقاها

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن

وكيل الجامع الأزهر وإمام شرف صاحب الجلالة الملك

فى ليلة « نصف شعبان المبارك » من سنة ١٣٧٠ هجرية

فى مسجد « محمد على » بالقلعة

نحمدك اللهم حمداً يديم علينا شكرك ، ويفتح لنا أبواب رحمتك ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطول . لا إله إلا أنت ظهر اللاجين ، وجار المستجيرين ، ومأمن الخائفين . ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من امرنا رشدا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . وصل اللهم على سيدنا محمد عبدك ورسولك الذى أرسلته للناس هدى ورحمة ومرشداً وداعياً إلى صراطك المستقيم .

أما بعد : فهذه ليلة من الليالى المباركة ، التى يتجلى الله فيها على عباده المخلصين ، فيعطى من يشاء ويغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء بيده الخير ، والله ذو الفضل العظيم .

وقد ورد فى السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم أحيا هذه الليلة بالصلاة والدعاء والاستغفار للمؤمنين والشهداء ، وبين أنها ليلة مباركة ، ينبغى للمؤمن أن يلتجىء فيها إلى الله تعالى عسى أن ينال من النفحات الإلهية ما لا يشقى بعده أبداً . فقد روى البيهقى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فصلى فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامه فتحرك ، فرجعت فسمعته يقول فى سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك إليك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . ولما فرغ من صلاته قال لها : هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله عز وجل يطلع على عباده فى ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم ...

مكتبتنا العربية

وقالت : إنه خرج فى هذه الليلة ـ أى ليلة النصف من شعبان ـ إلى بقيع الغرقد ، فأدركته فوجدته يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء .

وقد ورد فى فضل هذه الليلة عدة أحاديث رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم خرّجها من المحدثين الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبّان والطبرانى والبيهقى عن جمع من الصحابة منهم : عائشة وأبو بكر ومعاذ وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن عمرو وعثمان بن أبى العاص وأبو ثعلبة الخشنى وهى فى مجموعها تدل على أن الله سبحانه وتعالى يتجلى على عباده فى هذه الليلة المباركة ، ويتولاهم بالمغفرة والرحمة وإجابة الدعاء [١] .

ولكن ناساً ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوصافهم وبيّن أنهم ليسوا أهلا للمغفرة وأنهم مبعدون من رحمة الله فى هذه الليلة إلا إذا طهروا نفوسهم من الآثام وكبائر الذنوب التى وصفهم بها .

فمن هؤلاء أهل الشحناء ، وقد ورد ذكرهم فى رواية أبى بكر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ينزل الله إلى سماء الدنيا ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل شىء إلا لرجل مشرك أو رجل فى قلبه شحناء » والشحناء هى العداوة والخصومة ، والمشاكسة وهى وصف لو وجد بين أفراد الأسرة لانحلت عصبيتها ، ولو سرى بين الجماعات فى أمة لانحل كيانها وتفرق شملها ، ولو وجد بين أمتين فقد ينتهى بينهما إلى الحرب ؛ فأهل الشحناء ليسوا أهلا لأن يتولاهم برحمته ومغفرته .

ومنهم الحاقدون وهم الذين انطوت نفوسهم على الغل والعداوة والبغضاء للفرد أو للجماعة ، وقد ورد ذكر الحاقدين فى رواية عائشة ـ السابقة ـ رضى الله عنها أن الله يغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد كما هم .

---

[١] راجع فيما ذكر باب الترغيب فى صوم شعبان ٨٠ ، ٨١ من الجزء الثانى من كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى والمجلد الثانى فى نصف شعبان من كتاب لطائف المعارف لابن رجب ص ١٤٢ والجزء السادس من كتاب زاد المسلم ص ٥٦٨ و ٥٧١ ورسالة هداية الرحمن .

مكتبتنا العربية

والحاقد وإن لم يظهر بمظهر المشاكس إلا أن ما انطوت عليه نفسه يحمله على الكيد وخلق الخصومات للمحقود عليه والسعاية بينه وبين الناس بالعداوة والبغضاء، وقد وصف الله المؤمنين بقوله: «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم».

فالحقد صفة تحرمُ العبد مغفرة مولاه فى مواسم الرحمة والاستغفار.

ومنهم قاتلوا النفس التى حرمها الله، وقد ورد ذكرهم فى رواية عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يطلع الله عز وجل إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين: مشاحن، وقاتل نفس. ويكفى فى وصف قاتل النفس بغير حق ما توعده الله فى الكتاب العزيز من العذاب واللعنة والغضب، ففى سورة النساء، ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما، وفى سورة الفرقان، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيما».

هذه بعض أمثلة مما جاء فى أحاديث فضائل هذه الليلة، وأنه مانع من المغفرة وقبول الدعاء.

والأحاديث لم تستوعب كل الذنوب التى تبعد بين العبد وبين الله تعالى فى هذه الليلة، وإنما أتت بأمثلة ألقصد منها التنبيه إلى أن كل من كان متلبساً بالمعصية وكبائر الذنوب، فهو مبعد ومطرود من رحمة الله ومغفرته، فقطاع الطرق الذين يهددون الأمن والنظام، والذين يسعون فى الأرض فسادا، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل، والغشاشون والخائنون وأرباب الأهواء والمنافقون وشاهدوا

مكتبتنا العربية

الزور وأرباب الفتن ، كل أولئك وغيرهم من أصحاب الذنوب والمعاصى الذين ورد ذكرهم فى الكتاب أو فى السنة ليسوا أهلا لأن يشملهم الله برحمته ومغفرته حتى يتوبوا ويقلعوا عن الذنوب ويطهروا أنفسهم من الآثام ، وإلا فلا فائدة فى الدعاء والاستغفار ، وكما يقول ابن الجوزى : الثوب غير النظيف أولى به الصابون من البخور والتعطير .

فينبغى للمؤمنين أن يسارعوا بالتوبة وتطهير النفوس من الآثام والأوزار ، وأن يتفرغوا فى هذه الليلة لذكر الله والالتجاء إليه لغفران الذنوب وستر العيوب وتفريج الكروب ، فان لله فيها نفحات عسى أن تصيبهم نفحة منها ، يسعدون بها فى هذه الدنيا ويأمنون بعدها شر العذاب فى الآخرة ، فقد[1] روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » . وعن[2] محمد بن مسلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن لله فى أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها فلعل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدا » .

كان الناس ولا يزالون منذ عصر التابعين[3] يحيون هذه الليلة بالذكر والدعاء والاستغفار جماعة فى المساجد ، وكان التابعون من علماء الشام كخالد بن معدان الحمصى ، ومكحول الدمشقى ، ونعمان بن عامر الحمصى ، وغيرهم من أعلام العلماء لا يرون مانعا من إحياء هذه الليلة وتعظيمها جماعة ، ولهذا كانوا يلبسون فيها أحسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون فى المسجد ليلتهم ويجهرون فيها

---

[١] خرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى وغيرهما مرفوعا — لطائف المعارف ص ٦ .

[٢] خرجه الطبرانى ص ٧ لطائف .

[٣] خالف فى جواز إحيائها أكثر علماء الحجاز ص ١٤٤ لطائف المعارف ، والصحيح ما ذكرناه .

مكتبتنا العربية

بالدعاء والاستغفار ، ووافقهم على إحيائها إسحق بن إبراهيم الحنظلى ، المعروف بابن راهويه ، وهو من أشهر أئمة الحديث فى القرن الثالث ، قال عنه الإمام أحمد : إنه من أئمة المسلمين عندنا ، ولا أعلم له نظيرا .

وقال الأوزاعى إمام أهل الشام : إنه يكره الاجتماع فيها فى المساجد للصلاة والقصص والدعاء ، وإنما يصلى الإنسان فيها مفردا لخاصة نفسه .

وروى [١] عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامله بالبصرة : عليك بأربع ليال من السنة ، فإن الله يُفرغ فيهن الرحمة إفراغا ؛ أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الفطر ، وليلة الأضحى .

وقال الشافعى رضى الله عنه : بلغنا أن الدعاء يستجاب فى خمس ليال : ليلة الجمعة ، والعيدين ، وأول رجب ، ونصف شعبان ، قال : واستحب كل ما حكيت فى هذه الليالى .

والذى يترجح فى هذه المسألة جواز اجتماع الناس للدعاء والاستغفار فى هذه الليلة كما هو حاصل ، ولا كراهة فى ذلك . ففى صحيح مسلم [٢] عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وظاهر أن الدعاء والاستغفار نوع من الذكر ، أما الصلاة فتكون بلا جماعة لأنها صلاة نافلة [٣] ولم يثبت فى السنة أنها صليت بجماعة .

---

[١] يعضده فى الجملة ما روى عن معاذ وعبادة بن الصامت ص ١٠٠ ، ١٠١ جزء ٢ الترغيب والترهيب .

[٢] كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار جزء ١٧ صحيح مسلم بشرح النووى .

[٣] صلاة النافلة بجماعة جائز كما فى كتاب الصلاة من صحيح مسلم ، ولكن فى خصوص إحياء هذه الليلة كرهها العلماء والتى أحياها مفرداً ولم يثبت أنه صلاها بجماعة .

مكتبتنا العربية

أما ما ذكره الغزالى فى الإحياء من أن السلف كانوا يجتمعون فى هذه الليلة ويصلون جماعة أو فرادى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة الفاتحة وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، ويسمونها صلاة الخير ، فلم يثبت فى السنة ، وكل ما روى فيها من الأحاديث رده العلماء .

ومما جرى عليه العمل فى مصر أن الناس عقب الصلاة يدعون بالدعاء المشهور وفيه : « إن كنت كتبتنى عندك فى أم الكتاب محروما مقترا علىّ رزقى ، فامح حرمانى ويسر رزقى وأثبتنى عندك سعيدا موفقاً للخير فإنك قلت فى كتابك الذى أنزلت : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

هذا الدعاء [1] مروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لا فى خصوص هذه الليلة ، وقال : مادعا عبد قط بهذه الدعوات إلا وسع الله له فى معيشته ، وابن مسعود لا يقول هذا إلا إذا كان قد تلقاه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو دعاء مأثور يصح الدعاء به فى هذه الليلة وفى غيرها .

وقد اشتمل هذا الدعاء على أمر كان موضع نقاش بين العلماء ، وهو أن ما كتب على الإنسان من الشقاوة أو السعادة والأجل والرزق وغير ذلك يبقى بدون تغيير أو أن الله تعالى يمحو منه ما يشاء فيطيل العمر ويسر الرزق ، ويمحو الشقاوة ويثبت السعادة .

فريق يرى أن ما كتب على الإنسان لا يتغير ، وفريق آخر يرى أن الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله يمحو أمور عباده ويثبت ، إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنه لا محو فيها .

---

[١] راجع زاد المسلم وهداية الرحمن من المحل السابق ذكره .

مكتبتنا العربية

والذى يظهر من أحكام الشريعة فى مجموعها أن ما كتب على الإنسان من خير أو شر وأجل أو غير ذلك يبقى بدون تغيير ، إلا إذا غيره الله سبحانه وتعالى ، ففى الكتاب العزيز « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » ، وكان النبى صلى الله عليـــه وسلم يدعو بطول العمر وكثرة الرزق وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة .

أخرج [١] البخارى فى الأدب المفرد عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا له بكثرة المال والولد وطول العمر فاستجاب الله دعاءه ، وقال أنس : فوالله إن مالى لكثير وإن ولدى وولد ولدى ليتعادون على نحو المائة اليوم ، وقد أطال الله حياته ، فقد كان فى الهجرة ابن تسع سنين ومات سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ، وقد كان الصحابة والتابعون يدعون بالسعادة ومحو الشقاوة وتيسير الرزق وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة .

والأمم التى تعنى بالتربية الرياضية وتتقى الأمراض والأوبئة بالطرق العلمية السليمة ، وتعيش فى هناءة من العيش ، تطول حياتها وحياة أفرادها ، ويبارك الله لهم فى آجالهم . والأمم الجاهلة التى ترزح تحت أثقال المرض والأوبئة والجوع والفقر تموت بسرعة وتقصر آجال أفرادها .

هذه سنة الله فى خلقه ، والسعيد من وفقه الله .

هذا وإنا نرجو الله سبحانه وتعالى العلى القدير أن يطيل فى حياة حضرة صاحب الجلالة الملك ، وأن يجعلها حياة طيبة مباركة يعمل فيها لخير مصر ولخير العروبة والإسلام ، وأن يحفه الله بعنايته وتوفيقه ورشده وهديه ، كما نرجوه تعالى أن يوفق حكومة جلالته إلى خير العمل . وما يرجى لمصر من عز وسؤدد .

والسلام عليكم ورحمة الله

---

[١] أول باب دعوة النبى صلى الله عليه وسلم لخادمه بطول العمر ج ١١ من فتح البارى .

مكتبتنا العربية

أثر الصيام
فى تقويم الشخصية الانسانية

كان الناس إلى زمان قريب يحسبون أن الصيام من الشئون الخاصة بالأديان ، ولكن لم يكد ينتشر تاريخ الطب بين الناس حتى علموا أن الصيام اعتبر فى كثير من الأمراض من مقومات الصحة الجثمانية ، فقد علموا أنه عُد من عهد « ابقراط » عاملا قويا من العوامل المنقية للجسم من سموم الأغذية .

نعم سموم الأغذية ، فإن المواد الحيوانية التى نتناولها بشراهة ، تحتوى على مواد دهنية ، ومواد رباعية العناصر ، لا تطيق البنية البشرية أن تختزن مقداراً يزيد عن الحاجة منها ، وهذه الحاجة الضئيلة منها يمكن الحصول عليها من النباتات أنق وأصح مما يمكن الحصول عليها من المواد الحيوانية .

ولا يوجد من ينكر أن البوذيين فى الهند والصين ، وهم يعدون بمئات الملايين لا يأكلون لحوم الحيوانات تدينا ، وهم على أكمل حال من الصحة ، بل يوجد غيرهم فى أوروبا ممن لا يؤمنون بالشرائع الدينية لا يأكلون المواد الحيوانية بتاتا .

لسنا هنا بصدد تفضيل الأغذية النباتية على الأغذية الحيوانية ، ولكنا بسبيل إثبات أن الصوم عمل ضرورى طبيا ، لإيجاد الاتزان الطبيعى بين مواد الأغذية البشرية ، إذا حدث ما أخل بذلك الاتزان ، أو اقتضت الدورة الحيوية للإنسان إحداث عمل مباشر لإعادة نظام التغذية ، تفاديا مما يحدث بسبب اختلالها من اختلال الوظائف الهضمية ، ولاختلال هـــذه الوظائف فى العالم الإنسانى آثار بعيدة الأثر على حياته المدنية .

هذا التأثير الغذائى خاص بالنوع البشرى ، لأنه الكائن الوحيد المطلق الحرية فى شئون تغذيته دون سائر الكائنات ، فإن لكل منها نوعاً من الأغذية صيغت على موجبه أعضاؤها الهضمية ، فكل نوع منها خصت به أنواع خاصة من المواد

مكتبتنا العربية

لا يتعداها فى تغذيته ؛ وأطلقت الحرية للإنسان فهو يتناول منها كل ما يقع تحت يده ، وكثيراً ما يصاب بسبب هـذه الحرية بآفات مرضية تكون فى أول أمرها وبالا عليه ، ثم يعتادها فتصير مألوفة له مع بقاء أضرارها حائقة به من ضروب شتى ، حتى يتنبه إليها ويحاول التخلص منهـا ، وقد تمر الأجيال فلا يستطيع أن يتحول عنها . فهو من هذه الناحية معرض لانحرافات بعيدة . وقد كشف العلم هذه الانحرافات كلها ، وبحثها بحثاً عميقاً حتى لم يبق محل للمزيد .

كل ذلك لم يثن الإنسان عن المضى فيما هو عليه ، متجاهلا أحكام العلم ، شأنه فى جميع محاولاته المادية والأدبية ، حتى إنه ليجتمع الذين يعلمون والذين لايعلمون على مائدة واحدة ، فلا تستطيع أن تفرق بين الفريقين ، لتساويهما فى عدم المبالاة بالصنوف التى يتناولونها ، وهذا شأن الإنسان ، وأشد أدوائه تأثيراً عليه .

نعم ، إن العلم فى اقتباسـه الصوم من الدين لم يتقيد بمواعيده ، ولا بمدته ، ولا بأسلوبه ، فلم يأخذ منه إلا المبدأ : وهو أنه لكل مايلقى فى المعدة من المواد تأثيراً على الجسم والعقل والشعور معا ، ومن هنا يصح أن يكون ذا تأثير بالغ فى تخفيف الأعراض التى تنتاب الأعضاء الباطنة والظاهرة ، وتحويل محمود فى حالة المريض يتأدى منه إلى التخلص مما أصابه من الآلام والانحرافات .

وحصة الروح من هـذا التحويل لا تقل قيمة عن حصة الجسم ، فإنه يخلى الطريق أمامها لإيصال النفس الانسانية إلى مستوى من الشعور أرفع من مستواها وهى متورطة فيما هى فيه من الشؤون الحيوية .

وقد استفاد الطب من هذه الناحية مالم يستفده من ناحية العلاج بالعقاقير ، فجعل مناط علاجه للأمراض تخير المواد الغذائية التى يجب أن يعول عليها المريض فى التغذية . وقد أنشئت فى عواصم أوربا مصحات هى عبارة عن قصور فخمة فى وسط حدائق غناء ، ومياه جارية ، يقصدها المرضى من أرجاء الأرض ، ويمكثون بها أياما أو أسابيع يخرجون بعدها وقد تملأوا صحة وقوة ، لايشكون شيئاً مما كان يلازمهم ويؤلمهم ، ولم يتعاطوا فى مكافحته عقاراً ، ولم يشعروا بأنهم تحت سلطان

مكتبتنا العربية

نظام صحى دقيق ، فلا يمر عليهم أكثر من أسبوعين حتى يروا أنهم قد انتقلوا من حال إلى حال لم يكونوا يحلمون بها من قبل . كل هذا ببركة اختيار الأطعمة ، والاقتصار على غير الضار منها .

وقد شرع الله الإسلام خاتما للأديان ، لأنه جمع كل ما كان لخير الإنسانية منها وجعل الصيام ركنا من أركانه ، وجعل عدة أيامه ما يتفق أن يكون عليه رمضان بين ٢٩ و ٣٠ يوما ، مختارا له نظام الامتناع عن تناول شيء من الطعام أو الشراب ما بين أذان الفجر الى أذان المغرب ، وهى مدة تتراوح بين تسعة وعشرين وبين ثلاثين يوما . وقد آثر الله أن يجعله انقطاعا عن التغذى نصف ساعات اليوم دون أن يقصر ما يؤكل على صنوف من الأطعمة دون صنوف . وهذا فيما يظهر خير نوعيه ، لأن ما يحرم منه الصائم بالصوم يعوضه أضعافا مضاعفة فى شهور الإفطار فيضر نفسه ضررا بليغا . لذلك تركه الإسلام يختار لنفسه القدر الذى يكفيه من الأطعمة مع النصح له بالتخفف من الأغذية هربا من سوء مغبة الإفراط منها على الصحة .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ونزيد على ذلك ، أن لخلاء المعدة من العمل ساعات متوالية فى حالة راحة تامة ، تأثيراً فى إعادة قواها اليها لا يمكن الحصول عليه بأية وسيلة أخرى . مثلها فى ذلك مثل العامل المتعب الضعيف ، يستحيل أن تعود اليه قواه وهو مستمر فى العمل مهما كان ما يعمله هينا : ولكن بالانقطاع عن العمل بتاتا يعود اليه كل ما فقده من قواه ، فإذا عاد للعمل عاد اليه وهو حاصل على قواه كاملة : وفرق بعيد بين الحالتين فى حفظ هذا الجثمان بعيداً عن الوهن أطول مدة ممكنة .

فالصيام فى الإسلام إذن يكون له أثر بعيد جداً فى حفظ صحة أهله ، وسلامة جسومهم من العاهات ، ولكن أكثرهم لا يأبهون كثيراً بالمستقبل ، ولا يحسبون حسابا للشيخوخة ، ولا يعرفون للقوى حدودا ، فيعيشون كما يجيء لا كما يجب ؟

محمد فريد وجدى

مكتبتنا العربية

التفسير

سورة فاتحة الكتاب

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ حامد محمود

عضو جماعة كبار العلماء

قال الله تعالى :

« الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

وإنما سميت بذلك الاسم ، لأنها قد افتتح بها كتاب الله المجيد ، وافتتحت الفاتحة بالحمد لله رب العالمين ، لأنه تعالى أول كل شيء وآخر كل شيء ، هو وحده الحقيق بالحمد ، ولقد كان مقتضى الواقع أن يجاء بصيغة الأمر فيقال : احمدوا الله . إذ أن العباد هم المنعم عليهم فهم المطالبون بالحمد . وهو تعالى مفيض النعم ومسبغها فله تعالى الحمد .

ولكن الآية قد سيقت بصيغة الخبر ، إذ أن الأمر مقتضاه تكليف ، وللنفوس عند مبادأة بالتكليف جمحة ونفرة ، وإن عاودها بعدها الانقياد والطاعة ، ولكنه تعالى ـ سمت حكمته ـ وهو يبادئهم بشرعة جديدة ، وتكاليف لم يعهدوها ، قد أراد أن يؤنس نفوسهم ، ويؤلف قلوبهم بالترفق فى الخطاب ، حتى يديموا الإصغاء لما سيلقيه عليهم ، وإنما بدأ كتابه العزيز بتلك الجملة ليكون فى ذلك تعليم لنا أن نبدأ كتبنا وخطبنا بالحمد والثناء عليه تعالى ، حتى نبدأ ونحن فى صلة بالله تكشف عن النفوس أغشيتها ، وتجلو عن القلوب أصداءها ، مما يلمع به المفكر وجه الحق ، ويتبدى له وجه الصواب ، وهو من ناحية ثانية تنبيه لنا إلى ما يجب علينا لله تعالى ، وهو سبحانه المتعهد لنا فى جميع تطوراتنا منذ تكويننا من الطين حتى استوينا عقلاء مفكرين ، تحفنا فى كل تلك المراحل رحمته ، وتظلنا عنايته . وإلى ذلك فهو تصوير لتطورات الفطر السليمة ، إذ تتعرف ربها ، وإذ تنتقل من مرتبة

مكتبتنا العربية

إلى مرتبة ، حتى تصل إلى مرتبة الإحسان فتدوم المراقبة ويقوى الاتصال ، وإن أول تلك المراحل هو حمد الله حين نلتفت إلى وافر نعمته ، ومحيط رحمته ، وملكه لأولى العبد وآخرته ، ثم تنتقل إلى مرحلة العبادة والتقديس ، تفرده به ، وتخصه دون سواه ، ثم تنتقل إلى أسمى العبادات وهو الدعاء وسؤاله تعالى ما أطمعها فيه قربها من ربها ، وأن ييسر لها سلوك سبيل المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، لتنال جزاءهم وتحظى بمرافقتهم .

ولما كان الشكر هو ثناء من المنعم عليه على المنعم ، يعلن به عن انفعال نفسه وتأثرها بالنعمة الواصلة إليه بالفعل . ولما كان المدح ثناء على الممدوح ، وتقديرا لما قام به من جميل خَلقي أو خُلقيّ مما لا يصل منه أثر للمادح ، كجمال فى وجهه أو كشجاعة فى قلبه ، أو مما يصل أثره إلى غير المادح ، كالمروءة والكرم . لما كان ذلك هو الشكر ، وذاك هو المدح ، وكان الحمد فى مقابلهما هو ثناء يعلن به الحامد عن تقديره لذات المحمود ، لكونها مرد كل خير ، ومصدر كل نعمة ، من كبيرها وصغيرها ، من أصولها وفروعها ، من عامها وخاصها ، من واصل إلى الحامد بالفعل أو غير الواصل إليه ، لما كان هذا هو الحمد ، وذاك هو المدح ، وذلك هو الشكر ، فقد أصبح واضحا لك ما بينها فى الاستعمال من فروق .

فالشكر لما كان فى مقابل ما يصل إلى الشاكر من نعمة بالفعل . رأيتهم يتجهون به إلى الخالق ، ويتجهون به إلى المخلوق ، فتقول لذى جميل عليك : أشكرك : وتقول أشكر ربى على ما أولانى من نعمة ، والمدح لما كان على ما يقوم بالممدوح نفسه من جمال خَلقي ليس له أثر يتعدى ، أو خُلقيّ يتعدى أثره أو لم يتعدّ ، رأيتهم لا يتجهون به إلا إلى المخلوق ، وأما الحمد فلما كان إنما يكون لذات هى مصدر كل خير ، ومبدأ كل نعم ، ماجل منها وما دق ، ما ظهر منها وما بطن ، ما وقع وما لم يقع ، وما من ذات فى الوجود ذلك هو شأنها إلا الذات الأقدس ذات الله جلت ذاته ، وتقدست صفاته ، لما كان كذلك ، رأيتهم لا يتجهون بالحمد إلا إلى الله تعالى .

وإذا كان ذلك هو معنى الحمد ، كان أنسب المعانى التى تحمل عليها (أل) فى قوله : الحمد لله ، هو كونها للحقيقة ، فيكون المعنى : إن حقيقة الحمد مستحقة لله وحده ، فليس هناك موجود مهما سما فى معنويته ، أو مهما علا فى ماديته ، أن يكون فيه من الصفات ما يستحق بها أن يتجه له أحد من الناس بالحمد فهو وحده المحمود كما أنه وحده المعبود .

مكتبتنا العربية

ثم إنك ترى أنه قد أجرى على لفظ الجلالة نعت الربوبية للعالمين (الحمد لله رب العالمين) أى مربيهم ومتعهدهم بالتنمية ، ومتوليهم بحفظه ورعايته ، منذ كانوا تراباً إلى أن بلغوا أشدهم فى أبدع صورة وأحسن تقويم ، وإنما أجرى ذلك الوصف على الذات بعد ما ناطها باستحقاق الحمد لحكم بالغة ومعان سامية .

أما أولا — فلأن طلب الحمد الذى سبق فى صورة الخبر ترفقاً منه تعالى بعباده بإعفائهم من المبادأة بالأمر التكليفى الذى قد ارتكز فى النفوس البشرية استثقاله كما أشرنا لذلك سابقا أقول :

فلأن طلب الحمد ككل طلب متى كان موجهاً ، كانت القلوب به أشد اقتناعاً فتكون النفوس له أسرع استجابة وأدوم طاعه . فإجراء وصف الربوبية على لفظ الجلالة توجيه لما طلبه تعالى من عباده من أن يحمدوه .

وأما ثانياً — فلأن تذكيرهم بنعمه وبعجيب التطور المحوط برعايته وحفظه إثارة لنفوسهم نحو المسارعة إلى الاستجابة والمبادرة فى قوة وإخلاص إلى الطاعة .

وأما ثالثاً — فلأن إجراء الوصف على ذلك الوجه جعله كالاستدلال على استحقاقه تعالى وحده للحمد ، وفى ذلك إشعار لعباده بأنهم مكرمون من ربهم . إذ الأمر بغير توجيه فيه إيماء إلى إهمال عقولهم ، وحدة فى استعبادهم ، وعلى العكس إذا كان الأمر موجهاً وكالمستدل عليه يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم وفى تلك الرعاية تقدير وتكريم ، ولا شك أن هذه نعمة معنوية كبرى من شأنها أن تبعثهم فى قوة إلى الاستكثار من حمده تعالى .

ثم إنك تجد لفظ (رب) قد أضيف إلى صيغة الملحق بجمع المذكر السالم ، ذلك لأن صيغة جمع المذكر السالم من الصيغ الدالة على القلة وأقل الجمع ثلاثة . ذلك ليشير إلى أن المراد بالعالمين ، إنما هى الأجناس الثلاثة التى ينتفع بها الإنسان فى شئون حياته ، والتى هى ذات مدخلية كبرى فى نمائه وتربيته ، كما أن لها مدخلية قوية فى تنبيهه إلى نعم ربه ، ولفت نظره إلى موجبات حمده ، تلك الأجناس الثلاثة هى عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد ، ألا ترى أن له من الحيوان لحومه وألبانه وله منه أصوافه وأوباره ، وله منه أن يحمله ومتاعه إلى بلد لايستطيع بلوغه بدونه أو يستطيع بالمشقة المعنتة .

وله من النبات حبه وعصفه ، وخشب الأشجار وثمارها ، وله من الجماد أنهار وبحار وجبال ، ولكل نفع هو فى حاجة أو قل فى ضرورة إليه .

مكتبتنا العربية

فمن الجبال يبنى بيوتاً وفى البحار يجرى سفناً ، ويستخرج لحماً وحلياً ، ومن الأنهار يروى زرعه وحيوانه . وهكذا من كل ما هو من عوامل تربيته ووسائل نمائه وممدات حياته (الحمد لله رب العالمين)

ثم تراه قد أتبع هذا الوصف وصفاً آخر وهو « الرحمن الرحيم » وإنما أتبع الوصف السابق (رب العالمين) هذا الوصف (الرحمن الرحيم) لحكمة سامية ذلك أن المربى قد يكون خشناً جباراً معنتاً ، وذلك مما يخدش من جميل التربية وينقص فضل التعهد ، ويغير إشراق النفوس الحاصل عن الشعور بفضل التعهد والتربية فأتبع كونه مربياً كونه الرحمن الرحيم لينفى بذلك هذا الاحتمال ، فتبقى للقلوب طمأنتها ، وللنفوس بهجتها ، ويبقى الشعور بفضل الله على عباده غير مخدوش ولا ممسوس وتقدير النعمة كاملا غير منقوص ، مما يبعثهم فى قوة إلى حمد الله .

وقد جمع بين الوصفين (الرحمن الرحيم) مع كونهما معاً من مادة الرحمة ذلك لاختلاف معنييهما ، إذ أن كل صيغة تفيد غير ما تفيده الأخرى ، فمفاد صيغة (الرحمن) الإنعام بالفعل ، والإحسان الواقع المتكرر ، وأما صيغة (الرحيم) فإنها تفيد ثبوت الرحمة للموصوف ثبوتاً على سبيل اللزوم والدوام ، فلما كان الاقتصار على الأولى قد تمر معه فى النفس خواطر انقطاع الإنعام ، وهواجس منع الإحسان ، ضم إليه الوصف الثانى ليفيد أن إحسانه الفعلى وإنعامه الحاصل الواقع مصدرهما وصف ذاتى دائم الثبوت لذاته تعالى ، فمنبع الإحسان الفعلى ومصدر الإنعام الواقع دائم الثبوت له تعالى ، فلن ينقطع عن عباده إنعام ، ولن يفترله عنهم إحسان وفى ذلك دوام تعلق النفوس بربها ، واستمرار رجائها فيه مما هو باعثها على حمده ودافعها إلى تقديسه (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) .

ولما بين لهم موجبات حمده ، وأنه الحقيق وحده بالحمد . بأنه المربى الرحيم والمنعم الكريم ، أتبع ذلك ببيان أن هيمنته فوقهم ، وولايته عليهم ، وسيطرته على شئونهم ليست مما ينتهى بانتهاء تلك الدار ، وينقضى بانقضاء هذه الحياة ، بل هو إلى ذلك ملك اليوم الآخر ، يوم الحساب والجزاء العادل . يوم لا تظلم نفس فيه شيئاً (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وفى ذلك الإتباع استئصال لذلك الخيال الضال ، واجتثاث لتلك القضية الباطلة التى كثيراً ما اتخذ منها الشيطان حبائل لصيد الإنسان وصده عن سبيل الله ،

مكتبتنا العربية

وكثيراً ما أثارت بها النفوس غبار الشكوك والريب فى أفق الحق والإيمان لتحيد عن سواء السبيل إلى مهاوى الغواية والضلال : تلك قولهم (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباءنا الأولون) وإذن فلله الأولى والآخر ولا مفر منه إلا إليه، وفى هذا دفع لوساوس الشيطان ، وطرد لأحاديث النفس وأمانيها مما يحمل النفوس على الرجوع إلى الله وابتغاء مرضاته واتقاء عذابه بالإخلاص فى حمده والمداومة على ذكره والمحافظة على طاعته فيما نهى وأمر .

الآية قد قرئت (ملك ليوم الدين ـ ومالك يوم الدين) وعلى القراءة الأولى يكون اليوم ملكا لله بضم الميم وعلى الثانية يكون اليوم ملكا لله بكسر الميم فعلى القراءة الأولى يكون المعنى ، أن له تعالى على اليوم هيمنة الملوك فكل شأن يجرى فيه برسمه ، وكل تصرف فيه ينفذ باسمه ، ليس لغيره أمر ولا نهى ، ولا لسواه منع ولا منح ، ولا تصرف فى أى شأن صغر أو كبر ، بل كل ما فيه صاغر أمام عزته خاضع لجلال عظمته .

وعلى القراءة الثانية يكون المعنى : أن كل ما فى اليوم ملك له تعالى ينتظم جزئياته علماً وتقديراً ، شأن المالك الفرد فى جزئيات ملكه المحدود الذى لا يغيب عنه منه شىء جملة ولا تفصيلا ، حتى إن ما يجتمع فى ذلك اليوم من الأولين والآخرين ، من الإنس والجن ، من الملائكة وغيرهم ، مذنبهم وطائعهم ، من الناطق والأعجم مما يعيى العادين ، ويعجز الحاصرين ، كل ذلك قد أحاط به علماً جزءاً جزءاً وفرداً فرداً ، وكل ذلك محصور وزنا وعداً (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فيعلم أن ما يحتويه اليوم وإن جل وعظم فهو إلى عظمة ملكه حقير ، وإلى جلاله قليل ، فكان سبحانه بإحاطة علمه بكل ما فى اليوم على وجه التفصيل مالكا ، وكان بشموله لما فى اليوم سيطرة واستيلاء ملكا ، وإذن فهو الملك وهو المالك : ولقد أضاف ملك ومالك على القراءتين إلى يوم الدين . لأنه ليس هناك عبارة تفيد إحاطة ملكه بما فى اليوم إلا أن يملك اليوم ، إذ أن اليوم ظرف فلا يعقل أن شيئاً له وجود وليس فيه بل كل ماله وجود فهو بالطبيعة حاصل فيه فإذا كان اليوم مملوكا لله كان كل ما فيه ملكا لله وذلك هو السر فى أن يسلك فى التعبير مسلك الكناية لا الحقيقة .

(الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) يتبع .

مكتبتنا العربية

الرباداء البشرية الوبيل

لفضيلة الأستاذ الشيخ بدر المتولى عبد الباسط

المدرس بكلية الشريعة

إن التشريع الجدير بالاحترام هو الذى يحارب الشر بين الأفراد والجماعات ، فيبيح كل ما رجح فيه جانب الخير على جانب الشر ، ويحرم كل ما رجح فيه جانب الشر على جانب الخير ، ولا يقيم وزناً لخير مرجوح إن كان يقابله شر راجح ، ولا وزناً لشر موهوم إن كان يقابله خير مؤكد ، وإن الإنسان لا ينظر إلى الأمور إلا من ناحية هواه ؛ وكثيراً ما ينقلب الهوى على العقل ، فيفسد تفكيره ، ويريه الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً وقديماً قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولا يعدم محب الزنا أن يجد له مندوحة فى زعمه ، ومحب الخمر مبرراً لها فى وهمه ؛ فقد قرأنا وسمعنا الكثير من هذه الترهات . لهذا كان التشريع الإنسانى - فى كل العصور - مجالا للخطأ المقصود وغير المقصود ؛ ولم يترك الله الناس إلى عقولهم وأهوائهم ، بل أرسل رسله مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ، وشرع لهم الشرائع ، وكان تشريعه أو فى الشرائع بحاجة البشر ، فإنه - سبحانه - أعلم بمصالح عباده من أنفسهم ، وليس حكمه عن هوى أو غرض تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

ولقد راعى الشارع الحكيم فى تشريع المعاملات بث روح التعاون بين الأفراد والجماعات ، وتنمية عاطفة الخير فى القلوب ؛ فأباح من أنواع المعاملات كل ما يحقق هذا المبدأ النبيل ؛ وحرم كل ما من شأنه أن يقطع أواصر الألفة ؛ ويبذر بذور العداوة والبغضاء . ومما حرمه الله ، سبحانه - الربا ، وشدد فى أمره . وبالغ فى النكير على المتعاملين به ، وجعل المصممين على التعامل به من الخالدين فى النار ، وسلكهم فى سلك واحد مع الكفار الآثمين ؛ ثم توعد المرابين بحرب منه إن لم يتوبوا

ويردوا الأموال إلى أربابها .

إستمع إليه سبحانه إذ يقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ؛ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم » . ثم استمع إليه سبحانه إذ يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

وقد سد الشارع الحكيم هذا الباب لما فيه من شر مستطير وفساد كبير فجعل شبهة الربا محرمة كالربا فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل قرض جر نفعاً فهو ربا » وهذه سنة من سننه تعالى إذا عظم شر أمر من الأمور حرمه وحرم مباديه وكل ما يتصل به من قرب أو بعد كما حرم مباديء الزنا من نظر وخلوة ومس ، وكما حرم قليل الخمر وكثيرها وحرم بيعها كما حرم تعاطيها . حتى يقطع النفوس عن أهوائها ؛ ويردها عما يهلكها .

والنفس كالطفل إن تتركه شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وتطبيقاً لهذا المبدأ القويم جعل الرسول الكريم المتعاملين به وشهوده وكتاب صكوكه شركاء فى الإثم ، ولعنهم فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه » .

وعده الرسول الأكرم من الموبقات المهلكات فى الدنيا والآخرة وجعله فى مرتبة تلى القتل فى الإثم فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن قال « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا يا رسول الله وما هن : قال « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

وكيف لايكون قرين القتل وقد خرب البيوت العامرة ، وشتت الأسر الكريمة وأورث القلوب غـــلا وحقداً وحسداً ، وماذا وراء ذلك إلا سفك الدماء وإزهاق الأرواح ؟

مكتبتنا العربية

ومهما عدد الاقتصاديون للربا من مزايا ، ونسبوا إليه من فوائد فهل يستطيعون أن ينكروا أن الربا يجعل العلاقة بين أفراد المجتمع علاقة مادية بحتة : لا ظل فيها للتعاون ولا قيمة فيها للأخلاق الكريمة ؟ والشرع قد نظم العلاقة بين الناس على أسس من التعاون على البر والتقوى ، وهل ينكر رجال الاقتصاد أن الربا يجعل هناك طبقة من الناس تعيش على جهود الغير ، وتستنزف عرق جبينهم ، وتسعد بشقائهم ، وتشق بسعادتهم شأن كل الطفيليات التى تمتص دماء الإنسان والحيوان ، ولا تقوى إلا فى ظلال الجهل ، ولا تنشر إلا المرض والفقر ؟ ولا ينكر رجال الاقتصاد أن الربا يغرى أرباب الأموال أن لا يستغلوا أموالهم إلا فى هذا الباب لأنه فى زعمهم أضمن فائدة وأبعد عن مظان الخسارة وحينئذ تموت المشاريع العمرانية والصناعية التى يعود خيرها على جميع الطبقات . فإن الله جل شأنه ، لم يجعل النقد سلعة مقصودة لذاتها فى التجارة ؛ وإنما جعله الله وسيلة للبيع والشراء . والربا يصيره مقصوداً لذاته فيحتكره أرباب الأموال فتتعطل مصالح العباد وتتولد الثورات وتتفشى النزعات الهدامة .

ولعل البشرية لم تصل فى تاريخها الطويل إلى مثل ما وصلت اليه اليوم من علوم ومعارف ـ ولكنها ـ مع ذلك ـ لم تصل فى تاريخها الطويل إلى مثل ما وصلت اليه اليوم من اضطراب الأحوال وتبلبل البال وسلب الطمأنينة عن النفوس لا فرق فى ذلك بين الأفراد والجماعات والأمم ؛ فلا تكاد البشرية تقوم من هوة حتى تتردى فى هوة أعمق منها ؛ ولا تحل مشكلة من المشاكل حتى تواجه بمشكلة أعقد منها مع كثرة الخبراء فى كل ناحية من نواحى الحياة .

أليست هذه نذر من الله ـ سبحانه ـ لعباده بتلك الحرب التى آذنهم بها لانتهاكهم حرماته وخروجهم على تعاليم دينه ، وجعلهم الربا أساساً من أسس معاملاتهم ؟ ! ! وويل للبشرية ، ثم ويل لها يوم أن تصبح فى حالة حرب مع الله الواحد القهار « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » .

ربما كان من المحتمل أن يقع فى جريمة الربا فرد أو أفراد فإن كل عصر من العصور لا يخلو من العصاة والمذنبين والخارجين على الشرائع والقوانين ولكنه ليس من المحتمل فى مجتمع يدين بالإسلام أن يصبح الربا فيه أساساً

من أسس المعاملات ؛ تبيحه القوانين ، وتقع فيه الأفراد والحكومات ويشيع بين الناس حتى كأنه ليس جريمة من الجرائم . وكأن الله ـ سبحانه ـ لم ينزل فيه قرآنا، ولم يبين فيه حكما ، وكأننا نؤمن بآراء من نسميهم اقتصاديين أكثر مما نؤمن بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل .

وكأن هؤلاء المرابين لا يكفيهم زاجراً وواعظا ما يرونه من عواقب من سلف من أشياعهم وكيف أصبحت ديارهم خرابا وأبناؤهم فقراء مساكين يتكففون الناس ، وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ،

ثم إن هؤلاء المقترضين بالربا لا يشفع لهم عند الله تلك الأعذار الواهية التى يتعللون بها فجلهم إن لم يكن كلهم لم يقترضوا بالربا ليسدوا جوعة أو يستروا عورة بل اقترضوا ليعيشوا عيشة المترفين أو ليزيدوا إلى ملكهم ملكا جديداً ؛ ولو أنهم دبروا أمورهم فى حدود طاقتهم المالية ما فتحوا على أنفسهم وذريتهم بابا من الشر لن يستطيعوا له إغلاقا ولما وضعوا فى أعناقهم وأعناق أبنائهم غلا من الدين لن يستطيعوا منه فكاكا .

بقيت كلمة أخيرة فى هذا الموضوع وهى أن بعض من ينتقص أطراف الدين باسم الدين يتعللون بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » فيتمسكون بمفهوم هذا اللفظ ويقولون بحله إن لم يكن كذلك . ونحن نقول لهؤلاء : لقد فهمتم فى كتاب الله ما لم يفهمه محمد بن عبد الله وصحابته الأكرمون وما لم يفهمه أحد من الأئمة المجتهدين ؛ ولو كان ما تقولون مراداً لله لجاز أن يكون الربا ٩٩ ٪ أو دون ذلك ، لأن هذا ليس ضعفا ولا ضعف الضعف ؛ إن هذا الوصف لا مفهوم له بل هو بيان للواقع . فإن من شأن الربا أن يضاعف الدين حتى يتعذر على المدين السداد ؛ والواقع والمشاهد شاهد على هذا الفهم .

فالحق الذى لا مرية فيه أن الربا قليله وكثيره ظاهره وخفيه محرم عند الله ورسوله والمسلمين أجمعين ؛ فمن أحل منه صورة من صوره فإنما إثمه على نفسه وعلى الذين يتولونه . فإن الحلال بين وإن الحرام بين . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا » .

جعل الله المسلمين من أمرهم رشداً ، وهداهم إلى الصراط المستقيم ، إنه على ما يشاء قدير .